

محمد حسين ابو العلا

القرآن

وأوهام مستشرق

محمد حسين أبو العلا

القرآن وأوهام مستشرق

الناشر
المكتب العربى للمعارف

«ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين»

صدق الله العظيم

فصلت / ٣٣

مقدمة

منذ نزول القرآن الكريم على خاتم الأنبياء وانتشار الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها وترجمة هذا الكتاب لا تهدأ، ولأن شعوبا عديدة انضوت تحت راية الإسلام .. فقد كان حريا بها أن تترجم الآيات إلى لغاتها، أو أن تتعلم اللغة العربية وتقف على دقائقها وقفة بصيرة .. ولكن ماذا كان سيحدث لو لم تكن هذه الوقفة ؟!!

لم أكد أقرأ حديثا أدلى به المستشرق الفرنسى الكبير چاك بيرك أستاذ التاريخ الاجتماعى للعالم الإسلامى بالكوليدچ دى فرانسى لجريدة القبس الكويتية حول ترجمته للقرآن كمشروع طموح وكيف أنه وجد فى القرآن الاطمئنان الروحى الذى يسعى إليه، بل كيف استطاع تأصيل حضور الوحى فى النص القرآنى حتى اجتذبتنى كلماته واستهوتنى لمواصلة الحوار بل أغرتنى بالحصول على الترجمة وإذا بي أرى هجمة شرسة وطعنة غادرة للإسلام وكتابه المقدس .. كيف؟

إنه مسلسل التشكيك والتزييف يواصل حلقاته على يد عميد المستشرقين چاك بيرك وعندئذ تأكد لى ما أثاره من أسباب ترجمته للقرآن والتى كان من أهمها أن الكثير من الناس والمفكرين الآن ينبذون الصورة المادية للحياة المعاصرة ويرفضون مجتمع الاستهلاك .. هذا المجتمع المادى المحض ويفضلون عليه المدنية المعاصرة .. مدنية الإسلام الروحية وينادون بالعودة إليها !!

ولأن ترجمات القرآن أو ترجمات معانيه كثيرا ما تحمل توجيهات فكرية يراد

الانتصار بها فقلما كانت هناك ترجمة أمينة مخلصة بل كثيراً ما يكون هناك تعمد للمسخ والتشويه ويأتى هذا من أن أعداء الإسلام فهموا أنه قوة روحية لو تنبه لها المسلمون فسيطيحون بهم.. قوة تمثلها عقيدة إنسانية شاملة لكل القيم الروحية والوجدانية والتى كانت سببا لإنهاض العالم ذات يوم وعلى ذلك فما يثيره چاك بيرك من مزاعم وادعاءات فى مقدمته للقرآن كثير كثير وما هو إلا كلام ممجوج ومردود عليه فى كل جزئياته وقضاياه فرغت الساحة الإسلامية من مناقشتها من وقت طويل أو هو كلام قديم لا يقوله مفكر معاصر أخذ بحظ من الثقافة العربية الإسلامية ومن هنا لم تقدم ترجمته أى جديد يلفت أو يثير وإنما كانت بمثابة إضافة رديئة لكل الترجمات السابقة والمغرضة والتى لن تنال من الإسلام على مر العصور وانطلاقه الحضارى .

وخطورة هذه الترجمة لا تأتى من تحريف ترجمة المعانى بغير مراجعة من هيئة أو منظمة إسلامية وإنما تأتى من عدم إمكانية تبليغ القرآن للناس فى كافة الأرجاء على نحو صحيح مما يجعل المسلمين فريسة سهلة لمخططاتهم ودعايتهم التى يرددونها فى أطراف العالم الإسلامى .

أما آن الأوان أن تخضع هذه الترجمات للمراجعة والاعتماد من منظمة إسلامية تكون مسئوليتها الدفاع عن القرآن وملاحقة أعدائه الذين يتربصون له وينتهكون حرمته ؟؟ حتى لا يستطيع أن يدعى مدع كچاك بيرك نيله من الإسلام بما يلصقه به من تحريف وتشويه وحتى يعلم الماديون أمثاله أن من أبرز حقائق العقل وقوانينه أن الشكوك لا تبطل فرضا إلا إذا كانت قاطعة ببطلانه .

وهذه ليست المرة الأولى فلقد وقف الإسلام مرات عديدة فى مثل هذا المفترق أمام خصومه وصمد لحملات عنيفة مغرضة كهذه التى يشنها عليه خصوم عصره أملا فى محو قوته الروحية .

ونرى أن فرصة الإسلام خليقة أن تجدد الأمل خاصة أن هؤلاء الخصوم ليس لديهم إلا عدة سلبية لا يعتمدون فيها على حجة أو بناء فكرى بقدر ما يعتمدون فيها على ضعف العقائد فى عهد المادية الطاغية على العقول والضمائر .

إضافة إلى أن الإسلام عقيدة تترقى مع الزمن حسبما يعرض لها من ظروف وملابسات والمسلم الآن جدير بأن يواجه الغد فالدين مرن يتسع لما يجد من الآراء العلمية ولا يستعصى على ما يثبت من المذاهب الفلسفية فهو دين تعقل وتفكر ومطالبة بالفهم والدليل .. وكيف لا وقد تنرع بكل الأصول العليا ونادى بسلطة العقل .

وكل ذلك يجعلنى أتساءل ثانية .. أين مؤسساتنا الإسلامية المحلية والعالمية ؟

أين ذهبت حميتها على الدين حتى تحقق المناعة الفكرية الخصبة وحتى لا يكون هناك استساغة لهذا اللغو خاصة أن الترجمة تمثل اتجاها إلحاديا مخالفا لكل البدهيات التاريخية والاجتماعية .. وما فعله چاك بيرك لا يمكن بأى حال أن يدخل فى إطار حرية الفكر أو البحث لأن كليهما مبنى على غزارة المعرفة وقوة العقل فى سلامة منطقه ومن ذلك كانت ترجمته غير ذات طابع موضوعى وإن كان شهد له بالموضوعية فى نواحٍ أخرى تلك الموضوعية التى كانت من الممكن أن تعصمه مما تورط فيه فأصبح بعيداً عن الحقيقة وكتابه ليس إلا عبثا بل هو معجم اخر بالضلالات والأكاذيب والافتراءات ، "كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً " التى لا ترجع إلى الجهل وحده بل لسوء النية المتعمد .. وچاك بيرك ليس بدعا فى هذا فكثيراً ما سبقه غيره من المستشرقين فى تقديم نماذج سوداء للإسلام أمثال " باسكال ، مالبرانش ، مونتسكيو ، فولتير ، رينان " ، وفى القرن العشرين " كازانوفا ، وديرمانجيم " فلم تكن محاولاتهم جميعا إلا نوعا من الخلط والتخبط القائم على الوهم والغفلة وتلك أقرب طرق الضلال التى ينزلق إليها بعض أقطاب الفكر فى أوربا .

وإذا كانت هناك إيجابية واحدة أو استثمار حقيقى بالنسبة لنا نحن المسلمين فى هذا العمل فهى أن نناقش بمزيد من الدقة والتفصيل بعض قضايانا المعاصرة فى محاولة للغوص فى الواقع الإسلامى وتحليله بكل مشكلاته وجزئياته .

وما يجب أن تكون له أولوية خاصة إذ كيف يمكن لهذا الواقع أن يجتاز أزمته المتعلقة بأزمة الفكر فيه وينشىء تواجداً حقيقيا للشخصية الإسلامية حتى تخرج من المأزق الحضارى الذى تعيشه .

وكل ذلك لا شك قد شدنا إلى البحث فى الإشكاليات الفكرية والحضارية وأزمة العقل الإسلامى وحاجته إلى صياغة جديدة وانطلاقة العقل الأوروبى بما يلقى عليها عبئا كبيراً فى المرحلة القادمة . فهل نبدأ ؟!

محمد حسين أبو العلا

الفصل الأول

القرآن سيظل أفضل مُشرِّع لنفسه

في مستهل مقدمته أو انطباعاته يؤكد " جاك بيرك " أن تناول القرآن بالدراسة بدءا بتكوينه يعنى تناوله من أصعب أوجهه لأن هذا يعنى البحث عن العلاقات التى يؤكدها فى إجماله وسوره وآياته بل ربما يعنى أكثر من ذلك وهو تحليل توزيع الآيات فى جمل والجمل فى كلمات فى محاولة للربط بين القواعد والمنطق وعلم اللغة لذا يجب ألا نتوقع من هذا الجهد الفردى الوصول لنتائج قاطعة فى مجالات تخرج فى نظر المؤمن عن إطار البحث لكن هذه المجالات ودخولها دائرة الغيب لا يمنع ارتباطها بالإنسان لأنها تناشد عقله .

ومن حيث تجميع القرآن وترتيبه يقول " بيرك " إنه وفقا للمصادر التراثية فإن تدوين القرآن قد بدأ مع بداية الرسالة وسرعان ما أدى ذلك إلى تجميعات وقد ظلت هذه المحفوظات مجزأة حيث كان المسلمون يرون أن ذاكرة الرواة أكثر صدقا من الوثائق وذلك نظرا للأهمية التى تضفيها هذه المجتمعات على الصوت الآدمي، ولم تتم عملية التدوين النهائية من مختلف المصادر إلا فى عصر عثمان ذلك الوقت الذى شهد أحداثا اجتماعية هائلة وكان العمل الذى حظى بالموافقة الرسمية يلتزم الترتيب الذى أقره الرسول كما أنه لم يتم الاهتمام فى البداية إلا بأطول سبع سور ويؤكد " بيرك " أنه لا يمكن البت فى هذا الموضوع لأن الأحاديث غير كاملة ولا تعطى درجة المصداقية المطلوبة .

ويأتى ضمن الملاحظات التى أبدها " بيرك " أن المصحف لا يتبع الترتيب الزمنى للنزول بل تجاوزت المسألة أكثر من ذلك حتى أننا نجد داخل نفس السورة آيات أو

فقرات نزلت فى أوقات مختلفة وإن كان ذلك لا يثير أدنى قلق على العقيدة الإسلامية، فمثلا سورة البقرة التى نزلت عند وصول الرسول إلى المدينة وبعض منها نزل فى الطريق بين المدينتين كما أنها تحتوى على واحدة من آخر الآيات التى نزلت، بينما سورة المائدة تكاد تكون آخر سورة نزلت ونجد ترتيبها الخامس، ومن ذلك تتسع المسافة بين النزول والترتيب لدرجة التناقض !!ثم يسوق مثلا آخر يبرز فيه أن سورتى الأنفال والتوبة تتجاوران فى كتاب لدرجة أن الثانية لا تبدأ بالبسملة المعتادة ويعتبرها البعض تكملة للسورة السابقة بينما ترتيبها فى النزول وفقا للتراث هو الثامنة والثمانون فإحداهما عن واقعة بدر والأخرى تتحدث عن تبوك وبينهما واقع سياسى بأسره !!

وفى موضع آخر يؤكد " بيرك " أن عدم التوافق ليس دائم التواجد إذ أن التاريخ والترتيب يلتقيان أحيانا فى السور من لقمان إلى فصلت ولا شك أن هذه التوافقات توضح وجود ترتيب قرآنى يكشف عن تفرده وتركيبه الذى يمثل طابعه الحر ثم يتساءل "بيرك" هل يمكن تحديد معنى لكل سورة ؟؟ إنه يجيب بالنفى استنادا لتفسير الشيخ شلتوت فى سورة الفاتحة وتأكيده أنها تتضمن كل أفكار القرآن من إشارة للرحمة والثواب والإرشاد وعظمة الكون وإن كان يؤكد أنه نادرا ما تتفق العناوين مع المعانى ويمثل بسورة الحجر والنور والنحل والإسراء أو بنو إسرائيل كما ترجمها ومؤكدا أيضا أن هذا ربما يرجع لأسباب تخرج عن فهمنا ما دام هناك خلط لا يسمح بالاستدلال على معنى السورة من عنوانها .

هذا ويخوض فى مجال آخر هو التفاوت فى عدد الآيات فبعد سورة الشعراء لا يتعدى الطول المائة آية لكن المؤمن لا يسأل نفسه حول هذه التفاوتات الشكلية بينما تتجمع السور المكية فى نهاية المصحف لدرجة الغموض وعلى ذلك فالتطور المنطقى الذى يظهر لا يتفق وترتيب السور إنما يتبع ترتيب التجميع ... أم هو مستقل عن هذا وذاك ؟؟

ويستطرد " بيرك " إلى مسألة تكرار المفاهيم بألفاظ متطابقة متشابهة مؤكدا أن هذا هو نفس الشىء حين يتناول الإنجيل بعض الموضوعات بترتيب متداخل وأبرز مثل لتلك الآيات من ٨ حتى ٢٥ من سورة الكهف والجزء الثانى من سورة الرحمن وسورة البقرة

التى تأتى كنموذج يحتوى على أكبر قدر من الموضوعات ورغم تعدد موضوعاتها فإنها لا تشبه أى عرض موسوعى خاصة فى نصفها الأول ومن الآية ٦٧ وحتى الآية ٧٣ حيث تطرح حواراً بين اليهود وموسى تماما كما فى إحدى نصوص الإنجيل ولكن بصورة مبتكرة !!

كما أن التسع سور الأولى تتناول تكوين واستقرار المجتمع الإسلامى وذلك كله يخضع لاهتمامات اجتماعية وسياسية هى اهتمامات الإسلام فى زمنه .

ومسألة أخرى يشير فيها " بيرك " إلى أن النص القرآنى يقفز أحيانا بلا مقدمات من موضوع لآخر وقد يرجع ذلك لعدم الربط أو عدم وجود الوحدة العضوية وإن كان هذا الملمح ليس مستغربا لأنه كان موجوداً فى الشعر العربى القديم وامتد للقرآن على نحو آخر .. هذا بينما نجد القرآن قد تضمن كما هائلا من الأفكار والأحداث فى موضوعات السياسة والآخرة والتشريع وقصص الكوارث التى لحقت بشعوب غير المؤمنين مستعينا فى ذلك بنظرية الرموز والألغاز فى اللغويات من أجل قراءة تواصلية تخرج منها بوجود مجالات أساسية تتعلق بالله والطبيعة والإنسان ونقط تلاقٍ تربطها بالواقع المعاش للمجتمعات وهى أشبه ما تكون بتركيب النسيج وتمثلها أصداء اليقين الطبيعى عن خلق الإنسان وتوافقات الكون كما تمثل الآخرة خيطا آخر لصور تتفاوت فيها القوى وفقا للتهديدات والوعود إلا أنها تدعو الإنسان لمسئولياته مقرونة بالسعادة على الأرض وفى الآخرة وهناك استمرار ثالث وهو متصل بما سبق ومتعلق بمصير الناس والمجتمعات فهو من جهة أسطورى ومن جهة أخرى يتضمن فلسفة مفجعة أو كارثية للتاريخ وفى كلتا الحالتين فإن عدم الطاعة إلى الله يفسر المأساة ويدعو إلى الإصلاح و يبرر النبوة .

وبصفة عامة نجد أن القرآن قد تناثرت فيه محن الرسول ولحظات أحزانه حتى أصبحت تمثل سيرة ذاتية !!!

الأسلوب

وحين يتحدث " بيرك " عن أسلوب القرآن يذكر ما انتابه من حيرة إزاء الكلمات الشائعة التى لا يعرف ما إذا كان معناها قد تغير على مر العصور أم لا وأضاف إن تطور السور عبر آيات متفاوتة الطول دون أن تتفق دائما مع وحدة المعنى هو الوضع الشائع وتلك إشكالية لم تعرفها اللغة العربية إلا منذ جيل الشعر الحر .. ونفس التباين نراه بين البساطة والتواضع فى المفردات لكن كم مرة لا يصدم القارىء بالغموض ويدرك أن السهولة المزعومة سرعان ما تتبدد عندما نوغل فى البحث اللغوى لكن علوم الصوتيات الحديثة تكشف ملامح جديدة بدونها سيظل فهمنا للنص غير مكتمل .

وعلى نفس المستوى نجد " بيرك " يؤكد أن الالتفات شديد التأصل فى الشعر العربى بل فى عبقرية اللغة يستخدمه القرآن فى كل صفحة مما يمثل صعوبة بالغة أمام المترجمين الذين لا تتسع لغاتهم لتنويعات اللغة العربية ويظهر ذلك فى سورة العنكبوت أيات ٢٣ ، ٢٤ ونفس الصعوبة نجدها فى الفاتحة أيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ حيث يذكر اسم الله فى صفة الغائب ثم فى الآيات ٥ ، ٦ ، ٧ فى ضمير المخاطب والأمثلة كما يقول بيرك لا حصر لها لذلك يمكن اعتبار التعبير القرآنى بأسره قائما على التفات ضخم ومتواصل بما أنه نابع من مرسل واحد هو الله ومنطوق من شخص واحد هو النبى وهذه الدرامية تتخذ شكل عدة حوارات مقدمة بأسلوب مباشر أو غير مباشر وتتوازى هذه التنويعات التى يتقاسمها القرآن مع الشعر القديم لتدخل على النص حيوية ذات طفرات لا نهاية لها بينما نرى فى أماكن أخرى أن تتابع الآيات يرتبط بالإيقاع والمعنى ليعطى تنويعات أخرى ومثال ذلك الآيات ١١ ، ١٢ ، ١٣ من سورة النحل .

ثم يذكر " بيرك " المحاولات التفسيرية للألوسى فى هذا الخط كإحدي التحديات التى

يصعب مواصلتها حيث يقول إن مثل هذا العمل الجرىء سيكشف عن التشابه بالمزامير وإن كان ذلك لا يمنع وجود بعض التوازنات بين اللغات السامية التى يزخر الإنجيل بالعديد منها وهذه السمة الجديدة لأسلوب القرآن تؤكد أن ما ذكرناه عن التجميع من أن دقة سياق القرآن تضاهى دقة غموضه !!

ويضيف " بيرك " أن استخدام الأفعال فى القرآن شديد الحيوية مقارنة بالاعتدال فى استخدام الصفات ولا شك أن الطاقة اللغوية فى استخدام الأفعال تتفق مع نص يرجع كل شىء فيه إلى عمل الله وإن كانت الأفعال تتسم بتنوع الشكل والنوع أكثر مما تمتد فى الزمن !! كما أن هناك أفضلية رهيبة للأفعال المبنية للمجهول والغريب فى رأيه أنها تحتفظ بصفة الفاعل بينما هى موجهة لقوى غيبية عليا كما أن الأكثر شيوعا هو تقوية معنى الفعل بإضافة اسم اشتراطى " هل " وأيضا هناك تناول لمختلف استخدامات المصدر الشديد الثراء فى القرآن .

وبصفة عامة فإن طاقة اللغة القرآنية تضاهى قدراته الخلاقة ولذلك طغى على الشعر الجاهلى و تجاوزه بعد أن أخذ كل مقوماته !!

وفى وقفة أخيرة حول الأسلوب كأحد المحاور التى تناول " بيرك " منها القرآن نراه يشيد ببلاغة القرآن فى أسلوبه ويرى أن ذلك لا يمنعه من الإشارة إلى بعض الأخطاء الأجرومية والتى أثارت جدل علماء الفقه ومنها (من قبل ومن بعد) التى صارت مثلا واستخدام (أن) بعد (ما) فى سورة القصص (ما أن مفاتحه) آية ٧٦ والتى أثارت خلاف أهل البصرة وأقرها أهل الكوفة . ثم يتساءل كيف يمكن تفسير (المقيمين) بين جمعين فى الآيه رقم ١٦٢ من سورة النساء بل هناك ماهو أكثر من ذلك فى سورة الأعراف (سحابا ثقالا سقناه) أى مفرد بعد جمع !! وفى سورة النمل (هذه البلدة التى حرمها) ومن سورة طه ٦٣ (إن هذان) والتى يقول البعض إنها ترجع إلى لهجة محلية بينما يقول البعض إنه خطأ فى النقل معروف سن أيام عائشة وإضافة إلى ذلك نرى بيرك يسوق العديد من النماذج الأخرى التى يرى أن بها تفردات تستوجب الدراسة.

المعنى

فى هذه الفقرة من المقدمة يؤكد " بيرك " أن القرآن يهتم إجمالا بتحديد رسالته بالنسبة للذين سبقوه وأن اللغة القرآنية تصف عالما غيبيا يتجاوز معرفة الإنسان والآخرة تتألق بصور زاخرة وإن كانت تثير فى عصرنا الكاشف للأساطير الريبة بل المنازعة إذ أن تحديد معنى الجنة أو النار فى إطار الرمز يعنى تحدى الشعور المحترم لغالبية المسلمين وإذا كان عالم الإسلاميات يتجنب ذلك فلا شك أن عالم اللغة يمكنه أن يتساءل ألم يلجأ القرآن نفسه للرمز ؟!

وإنه إذا كان القرآن يدعو للعقل وأهميته أفلا يكون ذلك مدعاة للغوص فى معانى كلمات كاليقين والنور وإذا كنا بصدد الحديث عن العقل وأدلته فلا بد أن نأتى إلى الحكمة التى يكثر ذكرها فى كثير من الصفحات والتى هى من صفات الله فما هى الحكمة؟؟

هناك مثل عربى قديم يرتكز فى تفسيرها إلى ثلاث نقاط أولها فصاحة العرب ومهارة الصينيين اليدوية وعقل الإغريق . إنه ما أكثر الأفعال التى تشير إلى أهمية العقل إضافة إلى تعبير لعلكم تعقلون الذى تكرر أكثر من عشرين مرة، هذا العقل الناقد الذى يتدخل لاستبعاد معظم العادات والطقوس القديمة واختيار القواعد التى يجب اتباعها ومعالجة الأساطير كمواعظ فى حوار والتأمل حول الرسالة الحالية والأخيرة .

ويرى " بيرك " أن البلاغ الذى هو موضوع الرسالة أو النبوءة إنما هو غموض مطلق وإن تكن ألباب الناس أكثر استيعابا من عقولها فتلك معطية مباشرة للإيمان ثم يشير إلى أن الله يستخدم للدلالة على نفسه ضمير المتكلم والمخاطب والغائب وصيغ المفرد والجمع كما أن الآيات تنتهى بصفاته ويثير بروعة مرعبة الحالات التى ستنتابكم من

قشعريرة تسرى تحت جلدكم لمجرد ذكر اسمه فإذا ما كانت له الأسماء الحسنى التى هى صفات فهل الله فى حد ذاته له اسم خاص ولا سيما وأن لفظ الله لا يعدو سوى أن يكون نداء ؟!

ثم ينتقل إلى قصة موسى الذى جاهد لمعرفة كائن يفلت من كل ما يمكن فهمه وعبثا طلب من الله أن يراه ومرة ثانية اتخذ طلبه شكل رحلة غريبة تلتقى خلالها من شخص غريب ثلاثة دروس محيرة أو محبطة للفهم الإنسانى وستظل تفاسير ذلك المعلم الليلى غامضة وكأنها تنتمى لعبث من عبثيات كيركاجارد أو أنها تذكرنا بألغاز البوذية من ذلك فالغموض هو إحدى وسائل التقرب إلى الله أن بعض التعاليم تتخذ شكل الحدود وأغلبها شكل الوصية والوعظ وأقلها الأمر ولقد أحصى العلم الحديث الأحكام فى القرآن فكانت من مائتين إلى خمسمائة وفقا للمجال وهذا يمثل دعوة واضحة للتعلم التشريعى للناس .

والنقاش حول أخذ تقنين من القرآن والسنة أصبح يحرك اليوم عددا من البلدان الإسلامية أو طبقات اجتماعية أو سيكولوچية داخل هذه البلدان حتى أصبح ما يسمى بالأصوليين يمثل حركة أو على الأقل مرجعا سياسيا وإذا كانت الشريعة المفهومة اتخذها كثير من المسلمين كعلامة للهوية الجماعية فنحن لا نرى أن ذلك يعد تجديدا للفقه التقليدى وإنما هى محاولة جديدة لتقنين يصحح ويكمل لكن كثيرا ما يناقض عمل المشرعين الميالين للغرب .

إسقاطات

وهنا يناقش " بيرك " الآية الواردة ثلاث مرات فى سور مختلفة وهى التوبة الآية ٣٣ والفتح الآية ٢٨ والصف الآية ٩ « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » قائلا إن المفسرين يقرون هذا التعبير وقد أحسوا بالانتصار السهل على كافة الأديان فليسمحوا لى بالقول بأن القواعد لا تسمح بقراءتهم هذه كما أن تأكيد الجملة لا يقع على آخرها وإنما على وسطها (دين الحق) ومن يقف عند السنيين المعتدلين يجد أن هذه الحقيقة تتأكد بالنسبة للدين كما هو ممارس ومفهوم لذلك هل من المبالغ فيه أن نرى تحديا جزئيا داخل التحدى العام القائل بأن تنزيل القرآن هز عالماً غارقاً فى الشك !!

ثم يقف عند ما يسميه بتداخل النص عبر كلمة (قل) فى صيغة الأمر التى يقولها الله لنبيه كلما كان عليه أن يسوق أدلة دفع وقد تختلف الصيغة ولكننا نرجع دائما لنفس البناء فالله يجعل النبى يتحدث ولكن يتحدث عمن ؟؟ عن الله سواء فى مقولة متعلقة بذاته أو بإحدي صفاته وهو بذلك لا يبلغ مضمونا ما وإنما ظاهرة تجليه شخصيا كما تكررت ظاهرة الرجوع لذاته مما ينجم عنه ذلك الأسلوب الانعكاس الذى كثيرا ما لفت نظرنا .

وعلى مستوى آخر من الحديث نرى " بيرك " يوضح كيف أن دراسة النص بمختلف أفرع اللغويات الحديثة يبين العديد من الفوارق بين خطة التعبير الذى يتميز بالبساطة والوضوح من جهة وبين تركيبات أكثر سرية يمثلها منطق التجميع وعلم دلالة متدرج من جهة أخرى ويأتى ذلك كله فى محاولة لطرح فكرة أن الكلمة فى القرآن عربية قريشية بينما اللغة قرآنية صرف وإذا كانت للغة صفات خاصة فإن هذه الصفات تنسبها العقيدة إلى نموذج مثالى بينما المنهج التاريخى ينسبها لوجود أكثر وضوحا لما هو عام ولما هو

عالمى للعبقرية الفردية والجماعية وفى الحالتين نجد أن اللغة تتعارض مع ما هو متحرك ومع ما هو ظرفي ومع ما هو جائز فى الكلمة وربما أثارت أطروحتى هذه غضب المتمسك بالعقيدة إذ أن كل الإشكاليات لا معنى لها لديه وليس منى إلا أن ألومه على أنه يزعم لنفسه العلمية فى وقت يتيح فيه المجال لعقيدة ليس على البحث العلمى أن يؤديها أو يناهضها وأنه وفقا للغويات الحديثة وطبقا لمنهج (سوسير) يمكن القول إن القرآن ينقل أو يغير من الهوية الأساسية بالطريقة التى يعالج بها الأساطير الإنجيلية التى تتعلق سواء بإبراهيم أو نوح أو يونس أو موسى فهو يحول الأساطير إلى حوار مشوب بعلم النفس الفارقى وفيما يتعلق بالشكل فهو يعتمد على قصص شديدة الارتباط بالتوراة وفيما يتعلق بالمعنى فالقرآن ينزع الجانب الأسطورى عن الإسرائيليات ويضفى الأنسنة على إحساس الطبيعة الذى يتدفق باندفاع فى الشعر العربى القديم وعلى ذلك فلم يفقد القرآن غنائيته ولا ألوانه ولا قوافيه فبوسائل أكثر بساطة نجده يفوق هؤلاء الشعراء فى فهم الطبيعة والحياة لكن السؤال المطروح يتعلق بتداخل الجمل وكيف تتعلق واحدة بالمطلق والأخرى بما هو زمنى محدود وإن كان يشملنى الأسف من عدم استفادة من إمكانيات اللغويات الحديثة لدراسة القرآن !!

بعد ذلك يطرح " بيرك " مقولة إن النص القرآنى يتعدى التطبيق الزمانى ويقول إن تلك المقولة يفرضها المفسرون لكن بالمناسبة ألم يذهب هؤلاء المفسرون لإلغاء آية أو أخرى تخرج عن قبضتهم أو تناقض عاداتهم ولهذا يرى " بيرك " ضرورة الرجوع إلى تعليق الرازى حول الآية من سورة البينة والتى تحتوى على كلمة المنفكين والتى يقول عنها إنها أصعب آية فى القرآن ولكن إذا نظرنا إلى هذه الآية سنجد أنها ليست غامضة إلا إذا تمسكنا بمفهوم ثابت للحقيقة .

وإذا ما انتقل " بيرك " لفكرة الزمن والمصير فإننا نراه يرجعها إلى عدة متغيرات كما أن الرؤية التطورية التى تبدو كالحكم والأمثال وتظهر فى (لكل أمة أجل) يونس ٤٩ (لكل أجل كتاب) الرعد ٣٨ لكن هل يمكن أن نصل إلى أبعد من ذلك كله وندفع بالنسبية التاريخية لدرجة قلب ألفاظ النصين ونقول ولكل كتاب أجل إننى أرتجف وأنا أقولها فأى

مفكر حر جرؤ على قول هذه الكلمات العدوانية ؟؟ .. لا تبحث أنه الخليفة أبو بكر!!!

وفى ختام هذا المحور يقول " بيرك " إذا كان الإسلام يعلن أنه دنيوى فهل يمكن أن نطلق تعبير دنيوى على نظام يعتبرتواجد الله فيه هو المنظم لكل حركات الحياة وهناك علمانية تنمو منذ أكثر من قرن حتى أنها غيرت كثيرا من ملامح كثير من البلدان فرجال الدين يعتبرون العلمانية هادمة للمجانسة التى يقيمها الإسلام بين الدين والفئات الأخرى من الالتزام الاجتماعي إلا أنه لابد من أنتقاد الاستخدام المنحرف الذى يقومون به على نحو مغالط يقوم على الخلط، خاصة والإسلام يؤكد فى كل مكان على العقلانية والوضوح والتفصيل وأنه صالح للدين والدنيا فضلا عن دعوته لتنظيم المفاهيم وليس خلطها فى وقت يختار أعداء العلمانية هذه المقولة شعارا لهم .

وفى هذا يُذكر " بيرك " بدراسة نصين وتأويلهما وهما الآية ٢٩ من سورة آل عمران التى تحرم على حاملي الشريعة اغتصاب السلطة وكذلك آيات ٢١ ، ٢٢ من سورة الغاشية .

نظرة إجمالية

ويختتم " بيرك " مقدمته بمقولة بدأها بأن الرسالة الإسلامية انبعثت فى بلاد العرب مثلما ظهر الفكر الأيونى عند اليونان فى الوقت الذى تلاشى فيه عصر الأسطورة ليفسح المكان لعصر التاريخ ونحن لا نجادل المؤمنين فى حقهم أن يضعوا كلام الله أعلى بكثير من كلام السابقين لسقراط !! وإذا كان الفكر اليونانى بدأ بإعلان الاستنارة الأولى من قبل الإنسان وأصبح الإنسان عند اليونان يختبئ خلف الموجود فالله وفقاً للقرآن يختفى عن الفهم الإنسانى!!

ثم يقول " بيرك " إن العصرية الدينية للإسلام لابد أن تجد نفسها وتعكس بناءها الذاتى على واقعها وتحيى مطية قرآنية ومسلم بها وهذا هو ما فعله الإسلام منذ البداية بأن أخذ على عاتقه جزء من الميراث الجاهلى ثم تقلد جزءاً من الميراث اليونانى بعد أن فرض على كل منهما تعديلات أو تصحيحات استعلائية صارمة !!

ويرى " بيرك " أن مشكلة الإسلام اليوم تكمن فى الانفصام الشديد بين العقيدة ومسيرة العالم الفعلية بل حتى مسيرة العالم الإسلامى نفسه !! والإسلام فى رأيه يبحث عن ملجأ باتجاه الأصول إلا أن عدم إمكانية إخضاعها إلى النقد التاريخى لا يعيد للمسلمين قوتهم الأصلية كما أن الذكر الحقيقى هو الذى يحول الذكرى إلى مستقبل ولا شك أن هذه عملية خلاقة تدمج العصرية بالأصالة وتبدو كأنها لا غنى عنها إزاء هذه التجديدات التى يجب على كل نظام فى العالم أن يقترح حلولا ممكنة لها فالثورة العلمية تعبر الآن مراحل لم تصل إليها من قبل وانعكاسات هذه الثورة اتسعت عبر التصرفات الفردية والجماعية إضافة إلى التوحد المتزايد فى الكرة الأرضية والتحديات الناجمة عنه.

وفى الختام يقول " بيرك " بصفة عامة لابد أن كل هذا يثير تساؤلا أكثر اتساعا هو

هل الديانات الإبراهيمية قادرة على تحقيق التأقلم فى المستقبل ؟؟ ترى بأية طريقة ؟؟ وبأى شروط؟؟ وبأي ثمن ؟؟ وفيما يتعلق بالإسلام فالسطور السابقة من المقدمة تجعلنا نعتقد أن الإسلام فيما يتعلق بهذه المهام لا يزال أقل من الإمكانيات التى يتيحها له كتابه المؤسس القرآن .

الفصل الثانى

الحقد التاريخى على الإسلام

القول بأن المصحف رتب حسب النزول غير صحيح وما لاحظه چاك بيرك ليس جديدا فجميع المسلمين دون خلاف يقولون بأن الترتيب كان بتوقيف من النبى ويعلمون أن أول آية نزلت هى (أقرا باسم ربك الذى خلق) وترتيبها المائة وهذه قضية مفروغ منها تماما وسورة البقرة أول ما نزل منها فى المدينة بعد ثلاثة عشر عاما من نزول الوحى فى مكة وهى أول ما فى المصحف . أما ترتيب النزول وكونه مخالفا لترتيب المصحف فليس فى هذا ما يبعث على التناقض أو لا صلة له بالتناقض إطلاقا فالمصحف فى علم الله الأزلى وفى اللوح المحفوظ موجود بنفس ترتيبه الآن لكن نزوله على صاحب الرسالة كان حسب الوقائع ثم صاحب الرسالة يعود به على الترتيب الموجود عند الله فى اللوح المحفوظ .. . الإسلام من ناحية الثبوت العقلى والنقلى لا خلاف عليه فقد كان جبريل عليه السلام يلقى القرآن فيخرج الرسول على الناس ويستدعى الكتبة فيكتبونه ويملى فيسمعونه ويحفظونه فاتفق الخط المكتوب والصوت المسموع على لغة القرآن وكان هذا القرآن الذى يتشككون فيه يقرأ خمس مرات فى اليوم بترتيل معين وخطبة الجمعة على عهد الرسول ما كانت إلا قرآنا كلها وعلى هذا فلم تكن استدلالا وإنما قراءة نص وكانت " أسماء بنت يزيد " تقول ما أخذت سورة " ق " إلا من فم الرسول .

هكذا كان القرآن دستور الأمة على حياة النبى فكتب وسجل وانتشر فى الآفاق على حياة صاحب الرسالة فمن أين يجىء الشك والارتياب ؟؟ هذا من الناحية النقلية أما من

الناحية العقلية فليس فى القرآن تناقضات فالقرآن كتاب للدين والدولة، للعقيدة والشريعة، للإيمان والنظام، أو هو دستور كامل للحياة البشرية الدينية والسياسية والاجتماعية وكلام چاك بيرك عن تفسير الألوسى كأحد التفاسير المعترف بها لدى المسلمين إلا أنه تفسير عادى بل به شطحات أخذت على الألوسى نفسه منها أنه كان يذكر كلاما صوفيا فيه إشارات فضلا عما تضمنه من أحاديث ضعيفة بما يؤكد أنه ليس دقيقا بالمعنى لكن هناك تفسير الفقه للرازى وتفسير الكاشف الذى هو أصل التفاسير البيانية والبلاغية، والتفسير أيضا قد يكون أحكاما شرعية مثل القرطبى والخازن والشافعى وقد يكون تفسيرا للعقائد والفلسفات .

إن كل ما يلصقه " بيرك " بالقرآن من تشابه وتطابق ما هو إلا كلام تافه لا أصل له فكون سورة البقرة أو أى سورة من القرآن تتناول عدة موضوعات وتعطى كل موضوع حقه فهذا شىء لا غرابة فيه مما يدعونى لأن أتساءل أين هو الإنجيل الذى جاء به عيسى ؟؟ إنه لا وجود له لأنه اختفى باختفاء عيسى نفسه وكل ما يوصف بأنه إنجيل هو ما كتبه متى ولوقا ويوحنا عن عيسى كتلاميذ له فقد سمعوا منه كلاما فذكروه فى قصصهم وهو كلام لا يعطى شيئا ويشبه عندنا بعض الأحاديث الضعيفة والعهد القديم الذى هو كتاب تم تأليفه خلال ١٦ قرنا وأكثر من ٦٠ جيلا وكتبه أكثر من أربعين كاتبا منهم الملك و الفلاح والفيلسوف والشاعر والحاكم والعابد، موسى قائد سياسى وعاموس راعى الغنم ويشوع القائد العسكرى ومحميا ساقى الملك إنه به الكثير من كلام المؤرخين وحكايات وقصص لا آخر لها فما الرباط بين القرآن وهذه الكتب ؟؟ إنه لا تشابه إطلاقا لأن القرآن كتاب إلهى من وضع الله بينما الكتاب المقدس ليس إلا مجموع الأناجيل الأربعة و رسائل بولس ورؤية يوحنا اللاهوتى وقبل ذلك العهد القديم الذى هو أسفار موسى الخمسة وسفر حزقيال وأشعيا وإرميا ونشيد الإنشاد ومزامير داود وأشياء أخرى ذلك إضافة إلى أنه كتب فى أماكن مختلفة كتبه موسى فى الصحراء وإرميا فى السجن المظلم ودانيال على جانب التل ولوقا وهو مسافر وكل ذلك كتبه " ماكدويل " الذى ألف كتابا يقدم به كتب العهد القديم والجديد على أنها كتب الأزل والأبد .

أما مسألة اتهام النص القرآنى بالاستطراد وعدم الترابط فمسألة لا تسمح بالكلام لأن الذى يوهم نفسه بالغوص فى الثقافة العربية الإسلامية لم يكن عليه إلا أن يعود ضمن ماقرأ إلى تفسير البقاعى الذى يشرح التماسك بين المعانى والآيات ومناسبة هذه الآيات لما قبلها ومابعدها بل مناسبة السورة لما قبلها وتلك مسألة تتعلق بالترتيب كما بينا من قبل واذا كان چاك بيرك كأى مستشرق لا يعرف اللغة العربية ولم يتغلغل فى آدابها فلم تسعفه القدرة على الفهم بما يمكنه من ترجمة القرآن وبالتالى كل ماقاله لا يعيب القرآن بقدر ما يعيب قائله !! وقوله بالغموض الذى انتابه يجعلنى أسأله ما علاقته بالبحث اللغوى وإمكانياته فى معرفة أسرار اللغة العربية وطباعها فأنا مثلا لا أستطيع أن أخضع شكسبير للدراسات اللغوية على غير دراسة بالإنجليزية فكيف يجىء چاك بيرك بمحدوديته فى الفهم والذوق ويتهم أهم وثيقة بلاغية كالقرآن الذى هو عند التدبر يزداد الفهم له والاقتناع بإعجازه ومعذرة فإن إتهامه للنص ليس إلا شكوى لعجزه النفسى والفكرى .

بداية ليس هناك ما يسمى بالتناقض أو التوافق بين ترتيب القرآن المعروف فى التاريخ الإسلامى بأنه ترتيب توقيفى وبين ترتيب النزول أنما الفكرة أساساً تتلخص فى أن ترتيب النزول كان أشبه بما يكون إمداد الهداية البشرية لمن يطلبونها فى الوقت الذى يحتاجون إليها فيه والذى كان يحدث أنه كلما نزلت بعض الآيات أتى بها جبيرل عليه السلام وراجع الرسول فيما نزل من هذه الآيات ... جبريل يقرأ ويسمع الرسول وإذا ما ند منه شىء أعاده وصوبه ليتم فى نفس محمد بعد ذلك عملية استظهار أو حفظ للآيات القرآنية النازلة كما هى عليه فى اللوح المحفوظ رغم أنها كانت قد نزلت إما لأسباب معنية أو ظروف وملابسات استدعتها ظروف الدعوة آنذاك وعلى سبيل المثال سورة المسد وهى من أوائل السور نزولا هذا بينما يتصور بيرك أن الترتيب التوقيفى والذى نزل عليه المصحف لابد أن يجىء على نفس ما نزلت به الآيات القرآنية وهذا ليس لازما لأن المجتمع البشرى فى ذلك الوقت كان أشبه بما يكون بالجسم المريض فبقدر الداء الذى تمكن منه بقدر ما كان نزول القرآن موافقاً لأدواء البشر وموافقاً للوقائع والحوادث

والملابسات فمثلاً المرأة التى ذهبت للرسول تشتكى زوجها وظهاره منها ونزلت فى شأنه سورة المجادلة لم يكن من المناسب أن يؤخر الله هذه السورة إلى ما بعد وقت البيان والحاجة إليه وهل كان من المعقول أن تأتى هذه السورة فى بداية القرآن مع أن موقعها الطبيعى والموافق لما هى عليه فى الملأ الأعلى لابد أن يكون متأخرا هذه واحدة ، وأخرى عندما ذهب الرسول لينظم المجتمع فى المدينة المنورة وقد أصبحت له القدرة المطلقة على تنظيم هذا المجتمع وأصبحت للإسلام الكلمة العليا بعد ان لم يكن له هذه الكلمة فى مكة حيث كانت هناك ظواهر اجتماعية لم يتمكن الرسول من علاجها ولكن حين أصبحت له اليد القوية عالجها وإن كان يستشعر صعوبة فى هذه المعالجة نظراً لأنها تضرب بجذورها فى قاع المجتمع وهى عملية التبنى حيث أمر الله الرسول بأن يتزوج مطلقة متبناه " زيد بن حارثة " ليقتلع هذه العادة .

كل ذلك إذا عقلناه ووعيناه يجعل مسألة التناقض غير قائمة بل تتلاشى أمام تدبير إلهى حكيم .

أما فيما يتصل بترتيب الآيات داخل السور فمن الثابت أن الله يزود جبريل أن يأمر الرسول بوضع هذه الآية على رأس السورة وأيضاً يضع مجموعة هذه الآيات بين الآية كذا والآية كذا حتى إذا ما أشرف الرسول على الانتقال إلى الملأ الأعلى تمت مراجعة هذا الأمر وصحابة الرسول يكتبون فإذا أضفنا إلى هذا الجمع بين أيديهم من كتابة فى السطور ما جمعوه أيضاً فى صلاتهم وعبادتهم من حفظ له فى الصدور تمت بذلك للقرآن ما لم يتم لأى أثر كتابى فى العالم من تطابق حفظ بهاتين الوسيلتين إن تضل إحدهما فتذكر إحداهما الأخرى .

وفى رأيى أن مسألة التوافق نزولا وترتيبا فى القرآن مسألة لا يصح تفسيرها إلا أنها صدفة بحتة لأن هناك من القرآن ما نزل بسبب وما نزل بلا سبب كما أن القرآن لا يصح أن نقول عنه إن نزوله بسبب كذا أو كيت لأنه من هذا سينشأ سؤال ماذا لو لم يحدث هذا السبب ألم يكن يصح أن ينزل القرآن ؟؟

لكن إذا آتى الشىء وأنا بحاجة إليه كان أمكن فى النفس وكل هذا ليس غريباً على

ما تعودناه من المستشرقين فى مثل هذه الأمور إذ يأخذون من الإسلام ما يتفق مع تشويشهم عليه وإغراضهم نحوه ولو اتخذوا لأنفسهم طريق الإنصاف العلمى الحقيقى لوجدوا الإجابات لكنهم يحاربون الإسلام بأمضى سلاح فى أيديهم وهو القرآن !!

ولقد قال أحدهم ذات مرة إن ما فى القرآن من جديد يرجع فيه الفضل لمحمد ليس صحيحاً وما فيه من صحيح فهو ليس بجديد إنما هو ميراث سابق أنهم بذلك يجهضون قيمة القرآن ويسقطونها من الحساب على الإطلاق وهذا ليس من المنهج العلمى فى شىء إذ يحدد الهدف من البداية ولقد أعلنها فولتير صراحة وهو الذى مثل قمة العداء للإسلام حين اتهم باعتدائه على محمد صلى الله عليه سلم بسبب وبغير سبب فقال نعم إن اعتداءنا عليه مبرر ومنطقى لأنه لا يشكل عشر ما اعتدى به على الإنسانية !!

وفى تلك الفترة لم يكن المنتمى للمجتمع مسيحياً بالمعنى الحقيقى إلا إذا قدم بين يدى مسيحيته العداء الصحيح للإسلام ولنبى الإسلام وإن كانوا فى أعماقهم غير ذلك لكنهم لظروف اجتماعية وسياسية لا يظهرون هذا الأمر الذى يفسر لنا كيف أن كثيرا من هؤلاء وهم إخواننا فى الوطن يطربون للقرآن أكثر من المسلمين أنفسهم . حقاً إنهم عرفوا ولكنهم جحدوا " ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقلون الله ". وإنه إذا كان بيرك يؤكد أن المؤمن لا يسأل نفسه عن التفاوتات الشكلية التى تتمثل عنده فى أن طول السور من بعد سورة الشعراء لا يتعدى المائة آية ففى الحقيقة نشكر لبيرك أن يلفت النظر لمثل هذه الأشياء التى لا تشكل أدنى مساحة فى عقل المسلم لأن المؤمن يرى أن الكتب الدينية المقدسة ليس من الضرورى أن تكون على غرار المصنفات البشرية أو الآثار التى ينتجها العقل والتى تتوافر لها درجة التناسب والنظام بحيث يكون هناك تفاوت بين جزء وآخر ... والسؤال الآن من قال إن الأثر الدينى الهام الذى يناط به هداية البشرية يتبع هذه القاعدة الصلبة أو هذه المنطقية البشرية فالإنسان الذى هو شعور ووجدان وقيم وتراث وفكر ولغة وعقل من قال إن هذا الإنسان بهذا الكل يجرى فى إطار تنظيم عقلى صارم ذلك فضلا عما يعيشه من ظروف اجتماعية واقتصادية وسيكولوجية ومثل هذا الذى لا يثير الانتباه عند المسلمين ويثير انتباه غيرهم من المفكرين الذين يريدون أن

يضبطوا كل الأمور بمقياس عقلى أقول لهم شتان بين القرآن وبين أن يكون أسيرا لنظرتكم المنطقية الضيقة فكتابنا يتوجه إلى عامة الخلق ملحدهم ومؤمنهم متطرفهم ومعتدلهم كما تتوجه آياته للنفس الإنسانية فى رضائها وهدوئها وعنفوانها وشططها كتابنا فيه الآيات الصارمة التى تهدد الجبابرة والتى تقتضى بالضرورة أن تكون قاطعة كحد السيف بينما هناك الآيات القصيرة التى فيها رخاوة وتنظيم للحياة الاجتماعية .

إن الترتيب للسور المكية جاء موافقاً للنفس البشرية عندما تلتقى على مائدة القرآن وتبدأ التعامل واستظهار هذا الكلام فهى تتماشى بذلك مع نفسية الإنسان المبتدئ عندما يبدأ حفظه للقرآن بقصار السور التى تتمكن من قبله لوقعها السريع وقصر آياتها ووقوعها فى النفس مباشرة حتى يتطرق منها إلى السور الكبيرة لكى يستوعبها فيكتمل له التعامل مع القرآن وعلى ذلك فليس من المستغرب أن تكون هذه السورة فى بداية عصر الدعوة فلغتها وجملها قصيرة وحادة فيها التقريع والتأنيب بل الترغيب و الترهيب لأنها توجهت لقلوب ونفوس استغلقت واستبدت وعارضت الدعوة بل اتخذت الشرك عقيدة لكن حين تحكم الإسلام فى قلوب الناس نجد لغة القرآن نفسها اختلفت وأصبح الخطاب الإلهى يتواجه مع نفوس لديها من سعة الصدر مايتيح لها سماع تلك القيم الإنسانية رفيعة المستوى فى تنظيم المجتمع داخلياً وخارجياً .

وما يتساءل عنه بيرك من أن التطور المنطقى للقرآن أيتفق مع ترتيب النزول أو ترتيب التجميع أم مستقل عن هذا وذاك؟؟ إنه فى هذا يتجاهل حقيقة هامة وهى أنه ليس هناك ترتيب منطقى فى خطاب الله للبشر فالله حين يخاطب خلقه لا يخاطبهم على أساس كل مركب فى عقل واحد وهذا يفسر لنا لماذا تأتى الآية القرآنية موضوعها يتعلق بشىء فى الأرض وسرعان مايشد انتباه الإنسان ويأخذ بعقله ونفسه إلى عنان السماء ثم يهبط به مرة أخرى إلى باطن الأرض ثم يأخذ بعنقه فى لحظة واحدة إلى الماضى السحيق ثم يلوى عنقه مرة أخرى إلى المستقبل البعيد هذه هى طبيعة القرآن أما الإنسان الذى يتطلب جاك بيرك أن يكون القرآن وفق منطقه وعقليته فيطلبه فى نفسه!!

إنه لاشك فى أن كل هذه المغالطات تذكرنا بمحاولات المستشرقين لإعادة ترتيب آيات

القرآن وفق الموضوعات لكنهم خرجوا علينا بمسخ القرآن وليس بالتقسيم المنطقى الذى يطلبونه !! لأن موضوعات القرآن كما قال (مالك بن نبى) أكثر من أن تحصى وإذا عددت آية أو موضوعا تحت إطار معين فباستطاعة إنسان آخر أكثر منطقية منك أن يعيد هذه الآية إلى موضوع آخر وبصفة عامة لا يستقيم منطق مع القرآن الا المنطق الإلهى الذى يتوجه إلى البشرية بما فيها من نفوس وعقول وقلوب ومشاعر واهتمامات لذلك فمن المستحيل أن تمنطق هذه الحياة فى الماضى والحاضر والمستقبل تحت أية عقلية .

وقد تبدو المرواغة واضحة من جاك بيرك فى حديثه عن سورتى الأنفال والتوبة هذه المرواغة يتبعها بالضرورة أنه لابد فى ترتيب القرآن من التزام أحد الترتيبين على حساب الآخر فإما التزام بتاريخ النزول والتضحية بترتيبه فى الملأ الأعلى أو العكس وعلى هذا فمن الغرابة أن تأتى سورة الأنفال التى عالجت موضوع غزوة بدر سابقة على سورة التوبة التى كانت ضمن آخرما نزل وإذا ما أعوز الباحثين مثل "بيرك" الحصول على القرآن فى ترتيبه التاريخى كان ذلك ميسورا باستدعاء الروايات المتواترة والأخبار الصحيحة وليسمح لنا "جاك بيرك" أن نناقشه بمنطقه ولا نجرده من علمه التام بالظروف الحقيقية التى نزلت سورة البراءة لمعالجتها إذ أنها جاءت لتحسم وضعا استثنائيا استمرت فيه المهادنة بين الإسلام وغير المسلمين مدة طويلة ولم يكن من المعقول حتى بالمنطق البشرى أن تنتهى الدعوة دون حسم لهذا الواقع المضطرب من إقرار المحترمين للعهود ونبذ ورصد غيرالمحترمين لهذه العهود وإشهار السيف فى وجوههم حتى يدركوا أن مهادنة الإسلام لهم ليست عن ضعف وإنما من موقع الاستعلاء والحرية الدينية التى يكفلها الإسلام لسائر البشر ثم أن البدء بالبسملة كسائر سور القرآن يعد تناقضا قد يعرض القرآن نفسه للنقد والاعتراض ويجعل هذه البسملة موضع تساؤل دائم !!

ومن هنا نجد أن "بيرك" ينطلق من فكرته الأساسية وهى ضرورة أن يكون القرآن على غرار التصنيفات البشرية من حيث التكامل الموضوعى والوحدة العضوية لكن ماكان من عمل البشر لايمكن أن تكون معاييره هى معايير عمل الله شتان بينهما فهذه المنطقية الإلهية تعلو على فهم "جاك بيرك" وأمثاله أما أن القرآن قد تأثر بالشعر الجاهلى فتلك

تؤكد الزعم الخفى بأن القرآن ليس إلا من وضع محمد وهذه سقطة لا تصمد أمام المواجهة والبحث لأن من أبسط الأدلة الثابتة تاريخيا أن القرآن أعجز أئمة الشعر الجاهلى نفسه بشاهدتهم له على أيدى أعدى أعدائه !! وأظن أن المفارقة لاحدود لاتساعها إذا كان هناك محاولة للموازنة بين القرآن والشعر من حيث الموضوعات وإذا انتقلنا للوسائل التى صبت فيها هذه الموضوعات كاللغة مثلا لأدراكنا بعد الشقة .

وفيما يخص التراث اليونانى فلا شك أن البشرية عاشت آمادا طويلة على هذا الفكر وظنى أنها مازالت تعيش على بقاياه لكن ماذا قدم هذا الفكر سوى إغراق فى التجريد والخيال ؟؟ الذى وقف بهم عند حدود القرن السابع الميلادى وهوتاريخ ظهور الإسلام الذى ماأن ظهر ، وانتقلت البشرية نقلة كبيرة بل حضارية فى غضون مالا يزيد عن نصف قرن تغير فيه وجه التاريخ وهل يمكن إرجاع هذا التغير إلا لهذا الأثر الدينى العظيم واهتمامه بالواقعية وتنظيم حياة المسلمين والأخذ بأيدى المفكرين والعقلاء إلى أن يعيشوا واقعهم وحياتهم وأظن أن المدنية التى يعيشها إنسان اليوم تدين فى حقيقتها إلى مافعله المسلمون متأثرين بكتابهم لكن عندما تخلوا عن المنهج الإلهى وعن الانكفاء على متطلبات الآخرة أدارت لهم الدنيا ظهرها لأنهم انخدعوا بالأفكار التجريدية وعندئذ فقدوا السيطرة على العالم وسلموا الدنيا إلى هؤلاء الملاحدة الذين أخذوا بمنهج الله وهم يجحدونه !!

ليس القرآن سيرة ذاتية للرسول من قريب أو بعيد كما يحاول "جاك بيرك" أن يثبت هذه الصورة فى الأذهان وإنما ذكر فيه تاريخ الأنبياء السابقين تسلية للرسول وذكرت فيه الأحداث التى ألمت بهم وهذا شيء كان لابد منه فقد عانى المسلمون الأوائل ألوانا من العذاب وإذا كان القرآن يرصد أطرافا من حياته وتطور ظروف الدعوة فهذا ليس هو غرضه فبجانب هذه الصورة تتزاحم مئات وآلاف الموضوعات بحيث يقال إن القرآن لا يعكس صورة الرسول بل صورة العالمين منذ آدم وحتى يوم الدين وإذا ماحاولت استنباء القرآن عن الصورة المثلى للمجتمع البشرى فسينبئك لكن أن تأتى سيرة الرسول على نحو متميز عن سيرة غيره من الأنبياء ويفهم منها أنها سيرة ذاتية فلا .. ذلك أن هذا

التميز يأتى اعتبارا من أن القرآن يخاطب به الرسول قبل غيره من الناس كما أن هذا التميز ليس نوعيا بمعنى اختصاصه دون الأنبياء أو الناس بشىء يخالف به عامةالبشر .

إن كلام جاك بيرك عن وجود خلط لايسمح بالاستدلال على معنى السورة من عنوانها كلام خاطىء تماماً ويضاف الى ماساقه من ادلة لا اساس لها اذ أنه من المعروف أن سور القرآن القصيرة تقوم على موضوع واحد والسور الأخرى تشمل أغراضا متعددة ومن المعروف أيضاً أن القرآن كان ينزل منجما حسبما تقتضى الحوادث وكثيراً مانزلت السورة دون أن تختم ويبدأ بسورة أخرى ثم يأتى ما يكمل السورة السابقة ومن ذلك فليس حتماً أن تكون السورة ذات غرض واحد ولقد جاء ذلك فى قصار السور مثل العصر والكوثر لأنها تقصد عظة عابرة وليست سور تشريع أو قصا لأخبار السابقين . ليس المهم اسم السورة وإنما ارتباط آياتها بغرض واحد كما أن سور القرآن تحمل أسماءها من بعض الكلمات التى تأتى فى السورة فمثلا سورة العنكبوت أتى فيها (وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت) مع أن السورة تتحدث عن أخبار المعاندين الذين عوقبوا وكانوا يتعلقون بأسباب واهية كبيوت العنكبوت ومثلا آخر سورة القصص التى جاء فيها أحاديث موسى وشعيب وفرعون وقارون ومن هذه القصص كان اسم السورة فليس شرطاً أن يسمح بالاستدلال على معنى السورة من عنوانها فالسورة إذ تتناول موضوعات عديدة يكفى أن يحمل اسمها شيئاً من أغراضها وليسمح لنا "جاك بيرك" أن نسأله كيف ترجم الإسراء بالرحلة الليلية ولم يتنبه إلى أن أول آية منها تحمل عنوانها إضافة إلى آية أخرى هى (وما جعلنا الرؤية التى أريناك إلا فتنة للناس) كل ذلك مؤداه أن هناك علاقة قائمة بين اسم السورة وموضوعها وإن كان لايسمح استدلاله تشخيصا بالوصول إليها .

لا شك أن "جاك بيرك" أحد عمالقة الفكر الأوربى المعاصر ولاشك فى أن الجهد الذى قام به لترجمة معانى القرآن هو جهد عملاق جدير بكل التقدير ولاشك فى أن تناول أحد أعماله حتى لمجرد التقديم يربك من يقدم عليهاوقد كانت لى تجربة مع مجلة الهلال حين طلبت منى ترجمة مقدمة كتابه عن تطور المجتمع المصرى ديسمبر ٥٦ ـ يناير ٦٦ وتمر

الأيام لأجد نفسى فى موقف يزيدنى ارتباكا فليس المطلوب تلخيص مقدمته التحليلية المصاحبة لترجمة القرآن فحسب وإنما إبداء الرأى فى الترجمة ذاتها وخاصة أن هناك ما يزيد على خمس ترجمات بالفرنسية لشخصيات لها أيضاً وزنها الأدبى والفكرى .

ومثلما نفعل جميعا عند تناول أى كتاب بدأت بالفهرس ولم أفهم حكمة " جاك بيرك " فيما تبناه من تنوع فى منهجه العلمى فهناك عناوين سور لم يترجمها وإنما نقل نطقها بالأحرف اللاتينية مثل سورة الحجر ١٥ AL - Hijr وسورة الأحقاف ٤٦ AL- Ahgaf ولا أعتقد أن السبب هو صعوبة الترجمة إذ أنه استعان بمعنى السور أو أولى الآيات لترجمة عناوين أخرى مثل الإخلاص ١١٢ وترجمها La Religion Fonciers وسورة الشرح ٩٤ Epanouiss ement بصرف النظر عن صلاحيتها من حيث الدقة وقد استوقفتنى بعض الترجمات أكثر مثل سورة الإسراء ١٧ فلم يكتف بترجمة معناها الذى نقله Le Traget Mocturne (أى المسيرة الليلية وإنما أضاف بعده عنوانا آخر وتوضيحا هو أو أبناء إسرائيل فجاء Le Trajef mocturne ou les Fils d'israeli ونفس الشيء مع سورة غافر ٤٠ فالنص القرآنى يقول (تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب) فكيف تترجم إلى المؤمن المتسامح le croyant L'indu lgent والروم ٣٠ وترجمت باسم العاصمة روما Rome وسورة الطور ٥٢ ترجت بالجبل Le mont أى جبل ؟ ولماذا لم يتبع ماسبق استخدامه فى سورة الحجر والأحقاف أو جدلا أن يقال جبل الطور .

أما سورة الملك ٦٧ فترجمت إلى Le Royaute ومعناها الملكية علما بأن كلمة الملك موجودة فى الفرنسية ومستخدمة فى الإنجيل بعهديه وهى Le Royaume وسورة التكاثر ١٠٢ ترجمت إلى ما معناه التنافس عن طريق العدد Riva liser Par le nombre آية منافسة ؟! وسورة النصر ١١٠ وترجمت إلى Le secours Vic-torieux أى النجدة المنتصرة !! ولا يتسع المجال هنا لمزيد من الأمثلة وإن كان جل ماورد بالفهرس بحاجة إلى إعادة نظر .

وفيما يتعلق بالنص نفسه فلا يمكن تقييمه بنظرة عابرة ولايمكن أن يصل بى

الإجحاف لأقول المثل الشائع أن الكتاب يبدو من عنوانه وإنى سأكرر مانديت به طويلا من أن الجهد الذهنى والعلمى والثقافى المطلوب لترجمة القرآن يتعدى إمكانيات الفرد الواحد هذا من جهة ومن جهة أخرى أناشد المسئولين فى الأزهر تكوين فريق عمل يتولى مراجعة الترجمات التى صدرت بالفرنسية بما أننا بصدد ترجمة صادرة بالفرنسية ليخرج بترجمة واحدة صالحة .

وأخيراً ليس لى أن أقول إن ماورد بمقدمة جاك بيرك من انتقادات وتساؤلات وتلميحات لا يليق بمكانته العلمية سواء تلك النزعة الاستخفافية التى برزت من بين ثنايا عباراته أحيانا أم تلك المغالطات التى قد نفترض معها حسن النية .. فقد خانه التوفيق فى كليهما ولا أملك إلا أن أترك للمتخصصين الإجابة عليها وبخاصة أن كثيراً منها قد يشى بدرجة من درجات التعسف فى تناول الوقائع والذى قد يرجع إلى عدم فهم مضمونها فى العقيدة الإسلامية بقدر ما استند جاك بيرك إلى عديد من الشذرات ضعيفة المتن أو آراء الآحاد كما يقال فى الفكر الإسلامى .

وفى النهاية لا يسعنى ألا أن أقول إن جاك بيرك عملاق تناول عملا عملاقا لكنه للأسف وقع فى أخطاء عملاقة أيضا .

الفصل الثالث

واقع المسلمين ليس حكما على القرآن

النص القرآنى ليس نصاً مستغلقاً كما يؤكد جاك بيرك وإنما هو نص يتفاعل مع كينونة البشر بمختلف ثقافاتهم ودرجاتهم من العلم فهل يمكن أن نسمى هذا غموضاً ؟؟ إنه بلا شك عين الإعجاز لأن هناك فرقاً علمياً بين ما نسميه الغموض بمعنى إمكانات تعدد الدلالة وبين الغموض الذى لا يؤدى إلى معنى وهو ما نصطلح عليه بالاستغلاق بل هناك فرق كبير بين الغموض الموحى الذى يفتح باب الاجتهاد وبين ما قلنا عنه الاستغلاق الذى لايشكل مظهرا من مظاهر الإعجاز .

إن تعدد الدلالات فى القرآن أدى إلى وجود تفاسير عديدة له منذ نزوله وإبلاغه للناس وإلى أن تقوم الساعة لذلك فالاختلافات القائمة لا يمكن الحكم عليها بالخطأ والصواب إذ أن من روعة القرآن أنه يتحملها جميعاً ويفتح لها الباب لما يتجاوزها بل إن كلا منهما هو تفسير منطقى مع اللغة ومنطقى مع المعجم والمعنى والموضوع ويفتح التفاعل مع النص إلى مالا نهاية فلم يؤثر عن الرسول أنه أعطى تفسيراً كاملا للقرآن وبذلك أطلق الأمر للاجتهاد فى حدود معطيات اللغة وقوانينها وفى حدود ما أثر عنه .. إن النص الثرى المعجز هو الذى يسمح بإمكانات تعدد الدلالة. وعلى هذا فما يقوله "بيرك" هو محض اختلاق لا واقع له وهو يثبت أن "بيرك" غير مطلع على ما كتب حول القرآن من تصانيف وما كتب عن إعجازه وعلومه لأن هذه العبارات لا تصدر عن قارئ فاهم محايد وإنما تصدر عن التجاهل والتعصب لأن الذى يتقن اللغة العربية لابد أن يدرك ماللقرآن من إعجاز لغوى ليس فى ألفاظه بل فى المعانى التى تحملها هذه الألفاظ والتى هى فى

نفسها معجزة فكيف يأتى بالمعنى الكبير فى جملة قصيرة ؟!

إن تركيز جاك بيرك على الغموض يؤكد عدم فهمه للقرآن الذى يفسر بعضه بعضاً فمثلا القصة تأتى فى سورة بأسلوب وعبارات وفى سورة أخرى تأتى بأسلوب وعبارات أخرى ولو وضعنا النصين متقابلين لوجدناهما متكاملين ليزدادا إيضاحا ولذلك لا نشعر بالتكرار إزاء هذه الآيات وحتى التكرار فيها يمثل إضافة للمعنى والزعم بأن فى القرآن بل الإسلام ذاته مالا يثبت أمام البحث العلمى فالعكس صحيح تماماً لأن القرآن يقول هاتوا برهانكم وليس هناك كتاب دينى على وجه الأرض أورد أكثر من مائتين وخمسين آية تتحدث عن العقل ووظائفه وطرق الاستنباط وأقولها صراحة نحن المسلمين نستقبل البحث العلمى بكل ترحاب ومستعدون لأن ندخل أي معركة علمية أو عقلية تتصل بكتابنا أو تاريخ نبينا بدون أن تكون لدينا عقد أو عوائق فكتابنا واضح وحياة نبينا ملقاة عليها الأضواء منذ طفولته وإلى أن لقى ربه وليس عندنا ما يقلقنا وما أيسر ذلك على علماء الإسلام المتمرسين إزاء كلام يلقى به بعض هؤلاء جزافاً فأين هى الوقائع التى أثبتت أن القرآن قد انتهى أجله وهو مازال بلفظه الذى أنزل به وبتلاوته وهو الكتاب السماوى الوحيد الذى مازال متداولا كما أنزل فما هو الأمر الذى ضاق به القرآن ؟؟

إن جاك بيرك يقيس واقع المسلمين ثم يحكم على القرآن أقول إن كان المسلمون قد قعدوا وعجزوا عن تطبيق الإسلام تطبيقا صحيحاً فى مختلف نواحى الحياة إلا إنهم فى جملتهم ما زالوا ملتزمين به دينا يؤدون به فرائض الله يحلون حلاله ويحرمون حرامه وعلى ذلك فالقرآن لم يفارق حياتهم وما زال مسيطراً عليها لكنهم شأن المجتمعات البشرية فى العالم منذ كانوا أمة تقوى وتضعف فالمسلمون مرت بهم وتمر أزمات أضعفتهم إما فكريا أو بسبب التسلط الاستعمارى ولا شك أن كل هذا أثر فى واقعهم .

وإنه إذا أردنا وضع الأمور فى نصابها فالترجمات كثيرة والتعقيب عليها من المسلمين الذين يحسنون اللغة التى صدرت بها الترجمة قليل ومن هنا فالواجب أن تنشط الهيئات العلمية لمتابعة مثل هذه الترجمات والتصدى لها فنحن نعلم أنه كانت هناك فى الماضى حملات شرسة من المستشرقين ويبدو أنها تتجدد الآن على أيدى جاك بيرك .

ماقرأته عن هذه الترجمة لايقال لأول مرة وليس "جاك بيرك" هو الوحيد الذى صاغ هذه الأطروحات فى مواجهة القرآن الكريم وفى رأيى أن مثل هذه الأطروحات لا ينبغى أن تفزعنا لأن القرآن نفسه قد علمنا قمة التسامح مع الرأى المخالف ذلك حين صاغ عقائد المشركين وجعلها نصا يتعبد بتلاوته لذلك ينبغى أن يكون القرآن قدوة لنا أما الذى يصاب بالرعب فهو الذى يحس بأن عقيدته لاتقوم على أساس يمكن الدفاع عنه وأما نحن فمن غير المنطقى أن نتعامل مع هذه الآراء على أنها مجرد افتراءات أو أكاذيب وإن كان فيها من هذا لكن مالا يمكن إنكاره إنها تقدم فى صياغة علمية تتسم بالموضوعية ومن هنا ينبغى أن تواجه بنفس الروح وأن يكون الحوار فيها عقلا لعقل وليس حواراً عاطفياً .

وفيما قدمه بيرك من أطروحات تتعلق بالأسلوب القرآني فإنني موافق على بعضها ذلك من حيث إن النص القرآني لم يخضع للأبحاث اللغوية الحديثة والتى يقول " بيرك " إنها لم تتم بالشكل المطلوب والبيان القرآني مهمة تشخيصية تفوق إمكانيات البحث التقليدى ولاشك أن هذا يدعونا لنصل إلى ما هو أهم لأعمال وسائل البحث اللغوى المعاصر التى ستكشف وجوها من الإعجاز لم تتكشف للقدماء بمعنى أن أداة الاستكشاف التى يقدمها بيرك إذا تم إعمالها بشكل صحيح فإنها ستنتهى إلى عكس النتائج التى توصل إليها هو نفسه !!

إن النص القرآنى فيما يتعلق بتشخيصه يخاطب مستويات متعددة من التلقى منها الإنسان البسيط الأمى والعالم الراسخ فى العلم وبين هذين المستويين نجد أن كل مستوى قادر على إعمال وسائله لاستكشاف أوجه الجمال دون أن يحس أن النص أقل من مستواه وعلى ذلك فالذى أتفق فيه معه أن اللغويات الحديثة أو ما أسميه اللسانيات ماهى إلا مفتاح فعال ومؤثر لأنه يقدم لنا منظومة من الإجراءات المنهجية على مستويات صوتية وصرفية ودلالية ومقامية كل منها يتضافر لإظهار مافى النص من ظواهر إعجاز يستحيل أن تنسب لبشر واتفاقى المبدئى معه لايعنى الاتفاق فى النتيجة لأنه رتب على المقدمة المنطقية نتائج غير منطقية وأقول هذا لأن البحث التقليدى فى الإعجاز اللغوى

للقرآن لم يكن له فكاك من أن يرتبط بما توصلت إليه المعرفة الإنسانية عن طبيعة الظاهرة اللغوية ومناهج التعامل معها وعن طرق التحليل التى ينبغى إعمالها فى هذه الظاهرة مع نبذ المتكأ المنهجى له والذى هو منطق أرسطو حيث ارتبط البحث فى البلاغة والنحو بالجملة أو الشاهد أو المثال فأصبحت هناك درجة من التحديد معوقة لاستمرارية هذا البحث والنظر إلى مجمل النص القرآنى بوصفه نصا وليس سلسلة من الجمل أو سلسلة من الآيات ... إذن النظرة كانت قالبية بعيدة عن مجمل الآليات اللسانية الفاعلة فى النص إن لدينا إعجازا ولكن ليست لدينا تفاصيل هذا الإعجاز !! فلو أصبحت لدينا وسائل التحليل وكشف الغوامض فلابد أن ننتقل بالنحو العربى و البلاغة العربية بل واللسان العربى نقلة هائلة ونوعية من بلاغة الجملة ونموها إلى بلاغة النص ونموه وهذا الاتجاه يسود فى علم اللغة الأوربى منذ اواسط الستينات .

إن مقولة "جاك بيرك" إن القرآن يفوق إمكانات البحث التقليدى كلمة حق يراد بها باطل لكن الحقيقة أننى لا أرتبط بغائيته لأننى مطالب شرعا بأن ألتمس الحكمة فهى ضالتى حتى لوكانت عند"جاك بيرك" وحقيقة أن النص القرآنى حتى الآن لم تتم معالجته بالدقة التى تتناسب ومستواه .

وإشارة "جاك بيرك" لفكرة الاستمراريات فى معالجة النص فكرة ينصرف جانب منها إلى موضوعات القرآن وفحواه وجانب آخر إلى الأسلوب وفى هذه الاستمراريات البنائية حاول أن يضع يده على ثلاثة محاور وأعتقد أنه لم يوفق فيها لحصر كامل لمجموعة العناصر الداخلة فى البنية المفهومية للقرآن لأن هذه البنية من التعقيد والثراء بحيث لا يمكن حصرها فى بنية ثلاثية بل أعتقد أن هذه الثلاثية جاءته من فكرة التثليث التى ترجع كل الأصول إلى ثلاثة وهذا الثالوث عند بيرك كان الآخرة ـ ومصير الناس والمجتمعات وارتباط هذا المصير بالكوارث الإلهية ـ أما الثالوث عند الآخر فيظهر فى الربط بين الله والطبيعة والإنسان فى الواقع المعاش .

ومقولة " بيرك " بالتفاوت فى طول الآيات دون أن يتفق ذلك مع وحدة المعنى تثير قضية العلاقة بين الجملة النحوية والآية القرآنية فهل الجملة هى عين الآية أم أن الآية

تكون أكثر من جملة أو أن الجملة قد تشمل أكثر من آية وهذه العلاقة فى القرآن ثرية بل تعتبر إحدى الآليات الأسلوبية فى التعبير القرآنى وعموما هذه المقولة فيها بعض الصواب المختلط ببعض القصور فالقضية هنا ليست علم الصوتيات الحديثة وإن كان له دور بارز فى الكشف عن وجوه التميز فى أسلوب القرآن وارتباطه به من حيث الأداء والضبط وإحكام التجويد ومن وجهة نظر أحكام الوقف والابتداء وتأثر ذلك بتناول القرآن وتفسيره فالوقوف والابتداءات أحيانا يكون لها تأثير هام جداً فى فهم المعنى القرآنى كما أن علم الصوتيات الحديث يرتبط أيضاً بجماليات التشكيل الأسلوبى فى القرآن لأننا عندما نتكلم عن هذه الجماليات فاللغة العربية والنظام الصوتى لها يعتمد على مجموعة من الثنائيات والصفات المتضادة فلدينا المهموس فى مقابل المهجور ولدينا الأصوات الأنفية فى مقابل الأصوات الفموية والأصوات القصيرة فى مقابل الطويلة ثم المفخمة فى مقابل المرققة ولدينا منظومة هائلة من المتضادات فيها يتم التشكيل الجمالى للأسلوب وهنا يدخل علم الصوتيات الحديثة كوسيلة فاعلة وأصلية فى هذا المجال وذلك هو الجانب الصحيح فى مقولة بيرك لكن جانب القصور يأتى من أن علم الصوتيات لايمكن أن يستقل وحده بهذه المهمة فلدينا تشكيلات جمالية على المستوى الصوتى تتداخل مع تشكيلات جمالية على المستوى الصرفى التركيبى وأيضاً على مستوى علاقة سياق المقال بعضه ببعض ثم بالمقال وهذه كلها منظومة تحتاج لمهمة تجاوز علم الصوتيات لأن هذا العلم لم يفسر لنا إلا جانبا من جوانب التميز الأسلوبى للقرآن ومن ثم لابد أن نصل لمستويات أخرى من البحث تشكل ما أسميه أنا وما أدعو إليه .. منظومة نمو النص أو أجرومية النص التى تتجاوز قضية الجملة .

وظاهرة الالتفات التى يبرزها بيرك كنقيصة يلصقها بالقرآن أو يؤكد تأثر القرآن بالظواهر اللغوية المنتشرة فى الشعر العربى فالالتفات هواختلاف الضمائر مع وحدة الجهة التى يرجع إليها الضمير وهو من آليات التعبير الهامة جداً فى اللغة العربية ولكنه موجود أيضاً فى لغات أخرى بدرجة قد لا تصل إلى درجته فى العربية وإذا كان فى القرآن شواهد كثيرة على الالتفات كمظهر من مظاهر عبقرية اللغة إلا أن الالتفات

يتجاوز هذه النظرة الجزئية الضيقة .. إنه التفات يحدث فى كثير من الأحيان على مستوى السورة كلها ويتم توظيفه لأداء الغرض المراد منه بطريقة تكشف عن جانب من أهم جوانب الإعجاز فى القرآن وأستشهد مثلاً بسورة الواقعة حيث نجد الآيات تتحدث عن أصحاب الشمال بصيغة الغائب ثم نجد التفاتا مفاجئا إلى مخاطبة هؤلاء القوم (ثم إنكم أيها الضالون المكذبون) هذا الالتفات إلى الخطاب يجعله مدخلا لإقامة الدليل على وحدانية الله وتفرده بالخلق وهنا دلالة الالتفات هى استحضار للموقف وتجسيد له وإدارة مباشرة للحوار المباشر مع هؤلاء الخارجين عن الطاعة وحين تحدث عن (السابقون) فالتوزيع الكمى يتفاوت بتفاوت المواقف فلم يأخذوا إلا آيات معدودات لأن هؤلاء يعرفون مصيرهم وأصحاب اليمين يأخذون كمًا أكبر أما التفضيل فكان بمرواحة بين ضمير الغيبة وضمير الخطاب استحضارا للمشهد وتجسيدا وتمثيلا له وترويعا .. ومن هنا فالالتفات لا يأتى على مستوى الآية الواحدة وإنما يأتى على مستوى بنية النص كاملا وهذه إحدى وسائل تجسيد المعنى وإظهاره والمراوحة التى تشد الانتباه إلى النص فالله خلق الإنسان ويعلم إمكانياته فى التلقى فإذا كان المترجمون للنص يجهدون فى نقل هذا الجو فربما يرجع ذلك لضعف المترجم أو ضعف فى إمكانات اللغة التى تستقبل هذا النوع من الوحى .

أما الالتفات فى الشعر العربى فهو يرتبط أكثر بالشعر الشفاهى منه بالشعر المدون لذلك نجد أن الالتفات يقل نسبياً فى الشعر الأموى الذى يعتبر هو بدايات التدوين ثم يقل أكثر وأكثر فى الشعر العباسى وعلى اختلاف عصور الأدب ولكنه كثير جداً فى الشعر الجاهلى وأيضا فى شعر صدر الإسلام .. ويبقى أن الاتفاق بين النص القرآنى والشعر فى استخدام هذه الخصيصة أو الإمكانية الموجودة فى اللغة وعبقريتها فجانب الاتفاق أنه وسيلة من وسائل جذب انتباه متلقى النص إلى فحوى النص ولكن الغرض يختلف فى الشعر الجاهلى لأنه ربما كان خضوعاً لمواءمة مقتضيات الشعر بوجه عام ومواءمة حالة التنقل والرحلة التى يعيشها الشاعر الجاهلى وفى هذا الشعر لا يؤلف النص دفعة واحدة وإنما على أجزاء فيحدث تشعيث للنص بوجه عام أيضاً انطلاقا من

ارتباط الالتفات بأغراض هذا الشعر ، لكن القرآن من أصعب الصعب أن تفتقد فى الالتفات الوظيفة المباشرة التى يتطلبها النص وأنت عندما تصل إلى أي سورة مستخدما فيها هذا النموذج تصل لأقصى استخدام لهذه الإمكانيات وهى أيضا مرتبطة بغايات العقيدة .

إن إشارات "بيرك" إلى أن تتابع الآيات يرتبط بالإيقاع والمعنى ليعطى تنويعات أخرى وإشارته أيضا لدراسات الألوسى التى تكشف عن تشابه القرآن بالكتب الأخرى تؤكد التردد بين إثبات التفرد والابتكار للقرآن وبين محاولة إثبات وجود شبه قد يصل فى عبارته لحد الاقتباس عن العهد القديم وإنه من الناحية العقائدية فالقرآن من أول سطر فيه لآخر سطر يثبت وحدة العقيدة بين جميع الموحدين ويثبت أنه مصدق لما بين أيديهم ومهيمن على هذه الكتب فوحدة العقيدة عقيدة الإسلام بالمفهوم الأعم التى وصف بها القرآن جميع النبيين من قبل هذا معتقد أساسي من معتقدات القرآن ومن هنا لايمكن على الإطلاق أن تؤخذ أوجه التلاقى بين القرآن وغيره من الكتب الأخرى على أنها اقتباس أو شىء من هذا القبيل .. فإذا وجدنا مثلا قصة الخلق موجودة فى سفر التكوين وأيضا هى مروية فى مواضع شتى فى القرآن لكن بطريقة قاطعة الدلالة لتنقية عقيدة التوحيد مما يشوبها فالقصة موحدة ولكن بما ينبغى لله من كمال التنزيه وكمال العبودية أن تشابه القرآن بغيره من الكتب مستحيل إذا قارنا بين النص هنا وهناك هذا على المستوى العقيدى أما على مستوى اللغة فمن المعروف جيداً أن اللغة العربية إحدى اللغات السامية وأن الأناجيل كتبت بالسريانية والعبرية لذلك فإن أى تشابه فى المفردات أو الصور لايمكن أن يقال عنه إنه أخذ واقتباس من المزامير أو غيرها لأن المشكل اللغوى هو أن العربية وعاء الوحى ولم يكن من الممكن أن يخاطب البشر إلا بلغة يفهمها البشر أو بلغة تواضعوا عليها والقرآن يحل هذه المشكلة بين مواصفات البشر وبين قدسية الوحى بحل مشكلة العلاقة بين المطلق والنسبى هذا الحل الذى تمخض فى هذا النص المعجز .

إن قضية التشابه بأى نص لا أساس لها فضمن أصول الفقه شرع من كان قبلنا

فيما لم يرد فيه نص وهذه مسلمة لها دلالتها على سماحة الإسلام وتكامل العقيدة وفى هذا أيضا تحقيق لمفهوم الهيمنة على الكتب السابقة بمعنى أن ما وافقها فيه القرآن فهو صحيح وما خالفها فالصحيح هو ما ورد فى القرآن والمخالفة من صنع البشر وما لاحظه "جاك بيرك" من الاستخدام المكثف للأفعال دون الصفات فى القرآن وهذه فى رأيى قضية هامة جداً وهى من الوسائل التى يستخدمها علماء الأسلوب فى تشخيص الأساليب عند التوصل إلى الخصائص والمؤثرات الأسلوبية التى تفعل فعلها فى نفس المتلقى والحقيقة أن القرآن تتفاوت أجزاؤه تفاوتاً واضحاً فى هذه الخاصية ففى القرآن المدنى نجد أن خارج قسمة الأفعال على الصفات أقل بكثير من خارج نفس القسمة فى القرآن المكى وهذه إحدى الخصائص التى لم يلتفت إليها علماء السلف "كالسيوطى" فى الإتقان و "الزركشى" فى البرهان عندما ميزوا بين خصائص القرآن المكى والمدنى وقالوا إن القرآن المكى له خصائص معينة مثل اختلاف طول الآية واختلاف الموضوعات وأن أي آية مثل (يا أيها الناس) مكية و (يا أيها الذين آمنوا) مدنية لكن ما دلالة هذا التفاوت ؟؟ القرآن المدنى فى جوانبه الأساسية قرآن تشريعى لتنظيم أسس الدولة وتنظيم شئون الجماعة الإسلامية وتنظيم أحكام المواريث والقصاص والجرائم وبالتالى كانت الصياغة القرآنية صياغة تشريعية محددة لحقوق والراجبات والمواصفات ومن هنا **تزيد الصفات فى القرآن المدنى عادة زيادة ملحوظة إذا ما قورنت بالأفعال على مستوى** السور المكية لماذا ؟؟ لأن الأسلوب الذى يطغى فيه الفعل على الصفة التى هى مرتبطة بالتوصيف والتوحيد للكم والمقدار فهذا أنسب للتشريع وأما الفعل فإنه يخاطب العاطفة والشعور الإنسانى ويناسب الوعد والوعيد ومشاهد القيامة ومن هنا نجد أن القرآن المكى يخاطب الشعور والوجدان أساسا والعقل تبعا أما القرآن المدنى فيخاطب العقل أساسا والشعور و الوجدان تبعا ثم يدمج القرآن المكى والمدنى في مخاطبة الكينونة البشرية هى **عقل وشعور ووجدان وعلى هذا** فمن المنطقى أن السور المكية **كانت تتطلب أفعالا بنسبة أكثر** والسور المدنية كانت تتطلب صفات بنسبة أكثر .

وليس بالغريب أن يستشهد "جاك بيرك " بأقوال بعض أقطاب الثقافة العربية

وبخاصة الملاحدة ليأخذ ما يعينه على أغراضه ومن الطبيعى أن تكون أعمال الراوندى والخلاف الواقع بين علماء الكلام على خلق القرآن بل والخلاف الواقع بين الذات والصفات أنه من المتوقع أن تكون هذه المجالات مرتعا خصبا لمن يريد التشويه والإساءة وأقول إذا كانت هذه مكونات جوهرية فى ثقافاتنا فلا ينبغى أن تفزعنا لأن سماحة الإسلام تبدو فى الكلمة الجميلة التى قال بها أحد أئمته (رأينا خطأ يحتمل الصواب ورأى غيرنا صواب يحتمل الخطأ) دليل ذلك أن الثقافة العربية الإسلامية هى التى حافظت على أعمال الراوندى وغيره حتى وصلت لجاك بيرك ليتخذها دليلاً للمناقشة ولو كان هناك قمع للفكر المخالف لأحرقت هذه الأعمال وما كان له من سبيل إليها . إن كل ما أثاره "جاك بيرك" يؤكد حرصه على أن يكون مقنعا ونحن لسنا أقل منه حرصاً على أن نكون مقنعين فالجدل بين المقولات وارد وبالاستطاعة أن تستخرج من المقدمة الصحيحة نتائج صحيحة كما تستطيع أن تستخرج من المقدمة الصحيحة نتائج خاطئة وكل هذا مرتبط بالغرض والهوى وسلامة القصد وبيرك رغم حرصه لم يستطع أن يخفى أغراضه وأهواءه التى جعلتنا نفيد من الحوار المستمر مع النص القرآنى فى ضوء ما يستجد من بحوث وهو قادر على أن يظل معجزا وكاشفا ومبينا وهاديا للبشرية دون أدنى حساسية أو تعصب من جانبنا وبدون استخزاء أو خوف من التعامل مع هذه الخزعبلات التى يثيرها الآخرون ..

فى القرآن الكريم ليس هناك أفضلية للأفعال المبينة للمجهول على المبينة للمعلوم فالفعل يبنى للمعلوم إذا كان الفاعل معلوماً وكذلك يبنى الفعل للمجهول لأن الفاعل غير معلوم وحالة ثانية يبنى فيها الفعل للمجهول وهذه من دقائق اللغة ذلك إذا كان الفاعل معلوماً علما تاما بحيث يكون من العبث ذكره وأظن أن هناك فرقاً بين (وسيق الذين اتقوا ربهم) و (ساق الملائكة الذين اتقوا ربهم) .

وقول بيرك بأن هذه الأفعال تحتفظ بصفة الفاعل فذلك لأنه معلوم وأمثل لذلك بالآية (خلق الإنسان من عجل) و (خلق الله الإنسان من عجل) .

ثم ألا يعلم "بيرك" أن المصدر كاسم يمكن أن يكون صفة وأن اللغة تلجأ إلى التعبير

بالاسم الذى هو المصدر لأنه يفيد الدوام والاستمرار بعكس التعبير الذى يدل على زمن معين ولا يدل على الزمن الممتد فحين نقول يغفر فإنها تفيد زمنا معينا بخلاف غافر الذنب بمعنى دائماً فى الماضى والمستقبل وبصفة عامة لو يعلم جاك بيرك أن المصدر يمكن أن يكون صفة لما كان هناك سبب لحديثه وإذا كان قد تحدث عن الأفعال و الصفات والمصدر فقد بقيت الحروف التى تربط الاسم بالفعل فلماذا لم يتحدث عنها ؟؟

وأرى بكل التأكيد أن (هل) ليست اسما اشتراطيا بل لا علاقة لها بالشرط أساسا لأنها أداة استفهام .

أما قول بيرك بان الأفعال تتسم بالتنوع أكثر مما تمتد فى الزمن فيجعلنى أسأله كيف يترجم الآيات التى يعد الزمن فيها مطلقاً مثل آية (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) أعتقد أن هذه مسائل يجب أن تكون بعيدة عن دائرة الخطأ لمن أراد أن يترجم القرآن !!

من المؤسف أن ما يثيره جاك بيرك من تفردات أجرومية كلها أمور رمى بها الشعوبيون القدماء لغة القرآن ورد عليهم فى ذلك الوقت كثير من علماء المسلمين مثل ابن قتيبة ٢٧٦ هـ فى كتاب تأويل مشكل القرآن ومن هذا فلم يكن لبيرك منظوره الخاص وانما كان ناقلا لادعاءات الشعوبيين ومتجاهلا لردود علماء المسلمين فهل يدخل هذا فى إطار منهجه العلمى الصارم ؟؟!

وضمن ما أورده بيرك من هذه عبارة (من قبل ومن بعد) التى هى أسلوب شائع فى العربية للدلالة على التعميم الذى يتفق مع الذات الإلهية لأنه لو ذكر المضاف إليه لتخصص الأمر بالحالة القبلية والبعدية لكن عندما ترك المضاف إليه أصبح الأمر عاماً ..

كما أن استخدام (أن) بعد (ما) الواردة فى سورة القصص أسلوب شائع للدلالة على التوكيد ولو تركنا هذه الأداة لأصبح المعنى يحتمل الصدق والكذب وهذا بعيد كل البعد عن لغة القرآن وأسلوبه وكلمة المقيمين من سورة النساء أؤكد لجاك بيرك الذى يدعى العلم بالعربية أكثر من أهلها أن هناك ظاهرة فى هذه اللغة تسمى القطع وهذا يعنى أن التابع يختلف فى إعرابه عن المتبوع وبتقدير فعل وهذا يعنى أن كلمة المقيمين منصوبة بفعل

محذوف تقديره أمدح المقيمين ـ وما يقال فيما ورد فى سورة الأعراف (سحابا ثقالا سقناه) فإن سحابا اسم جنس يعامل الجمع مثل نخلة ونخلة ونخلة تجمع على اسم الجنس نخل !!

أما الحديث عن الآية ٤٦ من سورة النساء واعتبار أن فيها ما هو مأخوذ من العبرية : فاليهود كانوا يستخدمون كلمة لها فى اللغة العربية معنى سيء ولها فى ظاهر اللغة معنى حسن فكلمة رع فى العبرية تعنى شريراً وفاسدا وفى العربية معناها نظر واعتنى فعندما كان اليهود يقولون للنبى راعنا كانوا يقصدون المعنى العبرى لذلك فضحهم القرآن ووصفهم بتحريف القول وأمرهم أن يستبدلوا بهذه الكلمة كلمة أنظرنا وأعتقد أن جاك بيرك لا يجهل شيئاً من هذا بوصفه أستاذاً لتاريخ العالم الإسلامى !!

الفصل الرابع

أخطاء عملاقة لمفكر عملاق

دعوة القرآن للعقل وحثه على التفكير أمر لا جدال فيه إذ أنه فى مواطن كثيرة نجده يحفز العقل الإنسانى على النظر والتفكير والاعتبار ليصل من وراء ذلك للمعبود الواحد كما تضمنت معانى الآيات قضايا عقلية مما يؤكد أن التفكير فى الإسلام فريضة وإهمال العقل جريمة وإذا كان الحديث عن العقل قد دعى جاك بيرك لاستبطان كلمات كاليقين أو النور فأرى أن اليقين فى أسلوب القرآن يعنى الوصول بالقضية إلى أعلى مستويات الدرس العقلى بحيث لا تتيح الفرصة لمتشكك وبحيث ينتهى العقل إلى الاستمساك بالقيم التى آمن بها ويصبح من العسير التخلى عنها فاليقين فى القرآن يأتى بعد دراسة وبحث وتفكر واقتناع وليس مجرد اندفاع عاطفى يقوم على غير دراسة عقلية أصيلة لذلك فهو مرحلة أعلى وأسمى من مرحلة الدرس العقلى أو هو مرحلة تالية فباليقين يتم الاقتناع نفسيا وعاطفيا ووجدانيا وعلى ذلك فالعقل الذى يعول عليه القرآن ليس مجرد عقل بشرى وإنما هو العقل الصريح المجرد من الأهواء والتبعية لفكر أو التعصب لاتجاه معين أيضاً إذ أن هذا العقل المقيد لا يمكنه أبدا أن يصل لحقيقة وانما الذى يصل إلى الحق هو ذلك العقل الخالى من الأهواء والترهات وعلى ذلك فلو أن جاك بيرك عالج القضية بعقل صريح وقطع الصلة بينه وبين أى فكر متأثر به سلفا لما تشكك فى قضية اليقين بل من العجيب أن يتساءل مفكر واحد بل قادة الفكر فى فرنسا عن اليقين لأن ذلك يعد دلالة قاطعة على أن هناك عقلاً حبيس الأهواء والأحقاد الفكرية جعله يتساءل عن قيمة عرفها البشر!!

وكيف يتساءل عن كلمة تعد من الكلمات المطروحة فى مجال الحضارة الغربية منذ وقت فالتقدم العلمى الذى يتزايد يوما بعد يوم أتاح للكثيرين أبعاد هذه الكلمة فكيف غابت عنه ؟؟ وقد يقال إن اليقين المادى أمر محس يختلف عن اليقين المعنوى وإذا أقررنا بهذا الأمر وانتقصنا من اليقين الروحى فمعنى ذلك أننا سنخاصم رسالات السماء كلها وسنهدم المهمة العظيمة التى توافر عليها الرسل على امتداد مراحل التاريخ كما ذكر أن اليقين الروحى أو الفكرى هو الباعث والحافز علي الوصول لليقين المادى لأن التقدم الفكرى هو الباعث والحافز على الوصول لليقين المادى لأن التقدم الفكرى القائم على يقين هو المقدمة الضرورية للتقدم المادى ولأن الإسلام خلق تقدماً فكريا وعقليا فى أمة العرب والبلاد التى دخل فيها وكان من نتيجة ذلك التقدم العلمى والحضارى هذا التقدم الذى شهد له المنصفون من علماء الغرب والشرق .

إن من دلائل الطفولة فى التفكير العقلى أن يقصر الإنسان إيمانه على المحسات ويتنكر للمعنويات مع أن الإيمان بالمحسات يستوجب على العقل الراشد أن يؤمن بما يقابل ذلك فى عالم الروحانيات والمعنويات لأنه إذا كان الوجود المادى حقا فكذلك الوجود المعنوى لأن من نتائج الطفولة التى يعيشها العقل الإنساني فى رحاب الحضارة الغربية التى تحتفى احتفاء كبيراً باليقين المادى بينما ما نراه على صعيد هذه المجتمعات من جرائم وأحداث وموبقات تزرى بكرامة الإنسان نفسه مما يجعلنا نعتقد أن اليقين الروحى لو كان موجودا بنفس قوة اليقين المادى لما صاروا إلى الحالة التى هم عليها الآن مما يجعلنا نكرر دهشتنا إذ أن الإيمان بالقيم الروحية في هذه المجتمعات يأخذ صورة غير عادلة أو غير قويمة بحيث يكون مردودها لصالحهم وحدهم .

ولا بأس بالآخرين فالحرية لهم لكن لا مانع من أن يحرموا منها الآخرين إن هذه الازدواجية فى الإيمان بالقيم تجعلهم لا يستطيعون إدراك قيمة اليقين القرآنى .. إذ أن القيم القرآنية مطلقة فالعدل للجميع والرحمة لكل كائن حى .

أما عن النور فهو كلمة محددة ودقيقة وليست انسيابية كما يعتقد "بيرك" الذى لو كان على دراسة صحيحة بأسرار اللغة العربية وأساليبها وما تتجه إليه فى سبيل إبراز

المعنى من تشبيهات واستعارات وكنايات لما وقف هذا الموقف المتشكك من كلمة لا يتشكك فى مضموناتها عاقل !!

إنه لما كانت المهمة القرآنية هدفها هداية البشر لما هو أقوم ، تلك الهداية المعنوية كانت تسمية القرآن بالنور مؤدية بالعقل الصحيح والفكر القويم ودقة العبارة إلى تعبيرات أصبحت سائدة فى الغرب مثل الإشراقات الأدبية أو الإيحاءات أو الإلهامات أو غير ذلك من الكلمات التى يطلقونها ويجد الإنسان صعوبة بالغة فى تحديد مفهومها الأمر الذى لايمكن أن يجده الإنسان فى كلمة النور عندما تطلق على كتاب مهمته الهداية والإرشاد .

أما مسألة أن الله يستخدم للدلالة على نفسه كافة الضمائر فهذه ألوان تعبيرية عرفتها العربية بل هى مشهورة فى اللسان العربى ويسميها البلاغيون الالتفاف الذى يكسب الأسلوب تأثيراً وإمتاعاً والذى يحرك مشاعر المخاطب لمتابعة ما يقال وهذا الأمر لا يأتى إذا سار الكلام على وتيرة واحدة والعربى الفاهم للغته لا يجد غضاضة فيما يسمع من آيات تجتمع فيها الضمائر مثل (إننى أنا الله الذى لاإله إلا أنا) و(إلهكم إله واحد) ذلك إضافة إلى أن كل نمط من أنماط التعبير متوائم تماماً مع السياق الذى جاء فيه لفظ الجلالة .

الله فى القرآن علم من أعلام الذات الإلهية وكلمة الله هى اسم من الأسماء الحسنى وليست مجرد وسيلة نداء كما يزعم بيرك بل أنَّ الله هو المنادى ولفظ الجلالة من الألفاظ التى تميزت بها اللغة العربية ولا يوجد لها نظير فى لغة أخرى والمقابل لها فى اللغات الأوروبية لا يؤدى المدلول الحقيقى للفظ فى العربية لأنها تعنى عندهم الروح أو القوة المؤثرة أو نحو ذلك من المدلولات العامة على عكس المدلول المحدد لها الذى هو المعبود بحق فبدايتها بال تفيد الحضور وختامها بالهاء تفيد الغيبة وإجمالها يعنى أن الله الحاضر فى قلب المؤمن الغائب عنه لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار .

إن هذه السقطة التى وقع فيها بيرك أبرزت جهلة الفاضح باللغه وأسرار التعبير فيها ومدلولات كلماتها وبيرك ليس بدعا فى هذا بل هو كغيره من المستشرقين الذين قال

أحدهم عن آية (وترى الملائكة حافين من حول العرش) إن القرآن يقول إن الملائكة يقفون حفاة بغير نعال حول العرش !!

إن مثل هذه الأخطاء اليسيرة ماهى إلا خطايا لا تغتفر لمن يتصدى لترجمة القرآن وهو لم يحسن أدوات التعامل معه وإن كان يدعى أنه يضع فى اعتباره احترام شعور المسلمين في وقت ينتهك فيه هذه المشاعر ليعلم " چاك بيرك " أن الأنماط التعبيرية فى القرآن الكريم ليست مخالفة للمألوف من خصائص اللسان العربى التى يعرفها أقطاب اللغة والبلاغة ولو كانت كذلك لما سكتوا ولجادلوا النبى وقالوا ما ألفنا هذا فى لسان قومك بل أعجبوا بما سمعوا وانبهروا به رغم معارضتهم للمبادىء التى تحملها هذه الأساليب العربية الفصيحة .

إن الله ذات واعية ولا يجوز فى العقل ولا الدين أن تكون له حقيقة غير ذلك وليس هناك دين من الأديان دان به البشر مجرداً من فكرة الذات الإلهية كل التجرد فالعقل يستلزم أن يكون الكمال المطلق ذاتا فى لفظه ومعناه فكلمة الذات تدل على الجوهر الذى تضاف إليه الأوصاف وتدل على الكائن الذى يملك صفاته وبصفة عامة لا انفصال بين طبيعة الدين والذات الإنسانية والذات الإلهية . الله هو الاسم الوحيد الذى لا يدعيه أحد لنفسه .

وما يدعيه چاك بيرك من أن البلاغ يحيطه الغموض وأنه ليس هناك دلالات محددة فى الأسلوب القرآنى وهذا الادعاء يدل دلالة واضحة على جحوده بمسيرة القرآن على امتداد القرون ومهمة الهداية التى قام بها وأداها لملايين البشر فى الشرق والغرب بما فيه من مجالات العقيدة والعبادات والأخلاق والسلوك و القصص والأخبار وبما فيه من مبادئ مقبولة عقلا وواقعا وأقوال لبيرك فى هذا سل بنى قومك ممن أسلموا أو كتبوا بإنصاف عن الإسلام ماذا قالوا عن القرآن؟؟ وكيف شهدوا له بل شهدوا بما فيه من إشارات عظيمة ألمحت إلى اكتشافات علمية لم يعرفها الإنسان إلا فى العصر الحاضر هل عرفت أن المنهج الأخلاقى فى القرآن قامت عليه التشريعات المدنية وهذه قضية تحدث فيها علماء ومفكرون مسلمون وغير ذلك فما وجد واحد منهم أن النص القرآنى لا يحمل

مضمونا محددا بل العكس إذ لا يزال النص القرآنى يقدم الدليل المقتع للعقل البشرى الذى يقف مستسلما أمام حقائق القرآن ثم ليسأل " بيرك " " موريس بوكارى " وما كتبه عن القرآن فما قاله لا يمكن أن يكتب فى كتاب لا يحمل مضمونا محددا وإنه لمن الغريب حقا أن الجدل الذى انتهى حول القرآن لم يدر حول الألفاظ أو العبارات وهل تحمل مضمونا ما أو لا تحمل وإنما دار حول المضامين المحددة والواضحة مما يدل على أنها قضايا ذات أهمية حركت العقل الإنسانى وما زالت تحركه بل وستظل كذلك إلى أن تنتهى الحياة على الأرض .

ويكفى أن القرآن لا يزال حتى وقتنا هذا يثير الجدل مما يدل على حيويته وتجدده المستمر وهو الأمر الذى نفقده تماما فى أى كتاب آخر ألفه بشر مهما علا قدره ولا شك أن "چاك بيرك" يشهد الآن ونشهد نحن معه أن كل الكتب التى اعتزت بها أوروبا وظنت أنها المؤثرة فى التاريخ بل فى الفكر الإنسانى بصفة عامة مثل كتاب رأس المال لماركس و أصل الأنواع لداروين وتفسير الأحلام لسيجموند فرويد والأمير لماكيا فيللى نراها الآن تشهد انهيار كل الأيديولوچيات التى آمنت بها من قبل بل ووصلت بها إلى اليقين الذى ينكره چاك بيرك نفسه !!

إن عمله هذا لدليل غير مباشر يدينه من حيث لايريد ويشهد بحيوية هذا الكتاب الحق وإن أتيحت له فرصة أكثر من هذه فسيرى من دلائل القرآن ما يثبت ضلال فهمه وفساد منطقه لأن للقرآن منطقا وجدانيا يبرز من خلال ألفاظ معبرة وتعبيرات مصورة ومشاهد ناطقة محسوسة تواجه البديهة وتتصل بالحياة .

مقولة بيرك التى تتحدث عن اللغة القرآنية وما تصفه من عالم الشهادة وعالم الغيب الذى يتجاوز معرفة الإنسان وكيف يمكن التعامل مع الجنة والنار فى إطار رمزى ؟؟ هذه المقولة تطرح تساؤلاً حول اللغة القرآنية هل هى لغة رمزية أم لغة إشارية ؟ وهل يمكن تأويل الجنة أو النار تأويلا رمزيا ؟ حقيقة أن مسألة الرمز واللغة الرمزية فى القرآن مسألة لا يصح الكلام عنها بمثل هذه الإطلاقية ذلك أن الرمز هو فى غالب الأحيان وسيلة تأويلية يقوم بها القارىء لنص ما وخاصة أنَّ هناك تباعداً زمنيا بين النص وزمن إنتاجه

وبين القارئ فإذا صح هذا فمن الصعب أن نتحدث عن لغة رمزية فى القرآن ذاته لأنه من المؤكد أن العرب الذين كانوا معاصرين لنزول النص لم يفهموه فهما رمزيا والقصة التى تروى عن فهم بعضهم للخيط الأسود من الخيط الأبيض من الفجر تؤكد لنا الفهم المجازى نفسه والمجاز غير الرمز يخضع أحيانا للفهم الحرفى فإذا كان المعاصرون للنص لم يفهموه فهما رمزيا وكانت آياته بتركيباتها اللغوية تمثل لهم حقائق حرفية فمن الطبيعى أن نقرر أن لغة القرآن ليست لغة رمزية بأى حال من الأحوال لكن مع تطور الوعى الإنساني وتنامى المعرفة يخضع النص للتأويل المجازى أولا ثم الرمزى بعد ذلك الأمر الذى تجده عند المعتزلة والمتصوفة والفلاسفة على حد سواء .

أما رمزية صور الجنة والنار فى القرآن فهذا كلام ليس چاك بيرك أول من يقوله بل قاله بعض فلاسفة المسلمين من قبل والأهم من ذلك أن علماء الإسلام يقولون به وعبروا عنه فى لغاتهم الخطابية كأن يقولوا : إن كل ما ورد فى القرآن عن الجنة والنار إن هى إلا صور تقريبية فالجنة نفسها فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر أما عذاب النار فقد مال بعض الصوفية إلى القول بفناء النار ونهاية العذاب وانتهاء الأمر بجميع البشر إلى النعيم وإن اختلفت صوره وهنا يذهب محيى الدين بن عربى مثلا إلى أن العذاب مشتق من العذوبة ويقول إن مصير أهل النار سينتهى إلى نوع من التلذذ بعذابهم وهذا نمط النعيم الذى سينتهون إليه ومن جانبنا نستطيع الحديث بأن قول الله تعالى (ذلكم الذى يخوف الله به عباده) تحتمل أن ما ورد من وعيد بالعذاب يمكن أن يكون على سبيل التخويف وذلك كله جائز بشرط أن نعى أن فهمنا الرمزى القائم على تطور وعينا هو التطور الذى يجعلنا نفهم القرآن فهما رمزيا .

لكن يبدو أن " چاك بيرك " يتناسى طبيعة النص الدينى ويتناسى الفارق بينه وبين غيره من النصوص فالنص الدينى على خلاف النص الدنيوى الخالص حيث يتعامل بلغة خاصة ويطرح رؤية للعالم يلتقى فيها الفيزيقى والميتافيزيقى أو يلتقى فيها عالما الغيب والشهادة فإذا كان هذا يعد تناقضا من منظور بيرك فهو تناقض يشمل كل النصوص الدينية والحقيقية إنه لا تناقض إذا نظرنا لطبيعة هذا النوع من النصوص فمن شأن

هذه الرؤية المركبة أن يتم التعبير عنها بلغة مزدوجة تجمع ما بين الغموض والوضوح وهو ما عبر عنه القرآن بالمتشابه الغامض والمحكم الواضح وهذا الازدواج يجعل الواضح المحكم إطارا مرجعيا لفهم الغامض المتشابه .

وإذا ما ابتعدنا عن النصوص الدينية إلى النصوص الدنيوية سنجد أن تركيبة الغموض والوضوح موجودة فى كل النصوص إذ أن اكتشاف تأويلها وتفسيرها يمثل المفاتيح الأساسية فى النص وعلى هذا فالغموض الواضح هو أحد آليات النصوص فى إنتاج دلا لتها ومن هنا يبدو چاك بيرك وكأنه يطلب من النص الدينى ما ليس طبيعته .. يطلب الاتساق النظرى والوضوح المنطقى ويتناسى أو يتجاهل طبيعة تكوين النص وتركيبته الخاصة أى يتناسى تاريخية النص الذى أسهب هو فى عرضها من خلال مقدمته لتلك الترجمة إضافة إلى ذلك فچاك بيرك هنا ـ وهذا مثار الغرابة ـ لا يختلف عن بعض رجال الدين المسلمين الذين يكثر من انتقادهم من هنا فإدراك الواقع التاريخى لتكوين النص القرآنى من شأنه أن يعصم الباحث من مثل هذه الأحكام الخاطئة .

إن الغموض جزء جوهرى فى التجربة الدينية بشكل عام لأن الدين نسق من التصورات تربط العالم بما وراءه وهذا الغموض يتجلى فى تعدد التصورات واختلاف التجارب باختلاف الأشخاص أليس هذا الغموض هو الذى ألجأ المتصوفة إلى لغة الرمز والإشارة ؟ ثم إن هذا الغموض ليس قرين الالتباس دائما وسورة النجم مثلا وإن كانت غامضة من حيث مرجعية الضمائر إلا أن دلالتها ليست ملتبسة . إن " چاك بيرك " إزاء ترجمته هذه لا يتعامل مع النص القرآنى بوصفه نصا ينتمى لثقافة لها مفاهيمها التى ينطلق منها النص بل إن هذا أمر يتجاهله ويتعامل مع النص من مفهوم شمولى لا يختلف كثيرا عن مفهوم الأصوليين الذين ينتقدهم كثيرا !!

المؤمن لا يعيش أبدا فى غموض هائل فى الألفة مع الله وهذه الكلمة لا تقال بالنسبة لمعرفة الله لأن هذه المعرفة تتم باجتهاد النفس وتزكيتها بالأخلاق الفاضلة كما تحصل هذه المعرفة عن طريق الذوق والكشف فكل معانى الأخلاق وسيلتها الكشف والذوق ومعرفة الله ذوق ومحبته أيضا وليس التصوف استدلالات عقلية أو براهين منطقية تقام على هذه

المعرفة إنما هو تلك الصلة المباشرة التى تربط بين الإنسان والله عن طريق قوة الإيمان ولذلك قال الصوفية من ذاق عرفا فكيف يكون الغموض وسيلة معرفة ؟ وما يغمض لا يمكن معرفته والمعرفة الحاصلة عن التقوى ليست غموضا أو شيئا من ذلك والصوفية لم تستخدم هذه الكلمة بل لم يعرف هذا المعنى أساسا لأن هناك أخلاقا إسلامية وسلوكاً مع الله كل ما فيه واضح .

أما كلمة الألفة التى يستخدمها " بيرك " فهى تدخل ضمن التعبيرات الغريبة التى كان سببها دخوله ميدان الدرسات الإسلامية دون أن تكون لديه حصيلة كاملة للمصطلحات المستخدمة فى إطار هذه الدرسات ودون أن تكون هناك رؤية واضحة ينطلق منها وعلى هذا لا يمكن القول إن الله يألف ويؤلف وإنما التعبير الذى نلتزم به هو تعبير القرآن فى الحب المتبادل بين الله والإنسان فى قوله (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) والحب عند الصوفيه يأتى كعاطفة قويه تربط الإنسان بخالقه وكلما زادت هذه العاطفه ازداد الإيمان وكلما زاد الإيمان زاد الحب ، إنها لا شك تجربة ذوقية وجدانية ثم تأتى بعد ذلك كلمة فاتبعونى التى تتضمن الشريعة كلها وكأن الشريعة واقعة بين حبين أما الألفة فتعنى أن يألف الإنسان شيئا ماديا يكون بين الناس وليس بين الإنسان وخالقه وعلى ذلك فجاك بيرك لم يدرك معنى الحب فى الإسلام وإن كان هذا المعنى موجودا فى التراث المسيحى وهو عندنا أن حب الله أساس المعارف كلها فالطاعة تأتى عن طريق الحب والإسلام نفسه هو دين الحب والتعاطف والمشاركة الوجدانية وليس كما قال الفيلسوف الوجودى (سارتر) الآخرون هم الجحيم ففارق هائل بين الإسلام وهذه الرؤية إذن الفكرة القائلة بطبيعة هذه العلاقة بين الإنسان والله قد اتخذت صورا عديدة فى الفكر الإسلامى منها الحب الذى يقوم على أساس العقل والذوق ولقد توصل الفلا سفة من البرهنة العقلية على أن الله جدير بهذا الحب فى الوقت الذى يعد هذا عند الصوفية معوقا للشعور والوجدان لأنك إذا قلت لرجل تعال نقيم الدليل على وجود الله عن طريق فكرة الممكن والواجب وإن هناك واجب الوجود الذى خلق الممكنات فسيقول لك اتركنى فأنا شاعر بوجود الله فى قلبى ويملأ كيانى وأشهد تجليات الحق فى قلبى ولست

بحاجة إلى الأدلة العقلية وإن كانت هذه الأدلة قد تنفع فى مرحلة عمرية معينة لكن الصوفى وصل لمرحلة يحس فيها أن الله يغمر كيانه بأنواره وأنه ممتلئ فى كيانه الداخلى بوجود الله ويستشعر ذلك لكن كل هذا لا يعد بأى حال نفيا للعقل عند الصوفية وإن كنا نرى أن محبة الله محلها القلب فالدين تجربة وطالما أنت منفعل بالتجربة الدينية وخاضع لها تكون قريبا من الله لذلك فمن الخطأ القول بأن التجربة الدينية بينها وبين العقل فاصل، تلك التى يحاول أن يفرضها " چاك بيرك " فالإنسان عقل ونوق، والعجز حجة على من عجز .

ترجمة القرآن فى رأيى غير جائزه شرعا لأنها محاولة نقل كلام الله لكلام بشر وسبب ذلك أن القرآن له إعجازه وتفرده فى المعنى والأسلوب وفى الألفاظ والتركيب وفى العلوم الغيبية التى أخبر بها وإذا كان لكل حرف من حروفه وضعه ومعناه بحيث لو تغير هذا الحرف لا يؤدى المعنى المطلوب الذى هو مقصود الله فما بالك إذا وصل الأمر لتركيب آخر وأسلوب ولغة أخرى هذا مع افتراض وجود صدق النية ولعل السر فى انتشار اللغة العربية التى هى وعاء القرآن أنه نزل بلفظه ومعناه ولو أنه نزل بمعناه لقلنا من يشاء أن يترجم فليترجم .

أما ما تحدث عنه بيرك من قصة موسى فأرى أنها محبطة بحق لعقله ولكنها ليست محبطة للفهم الإنسانى كما يدعى وكيف ذلك وقد ارتبطت الأسباب فيها بالنتائج ؟؟ فقد ورد فى هذه القصة أن موسى قال : إلهى تسمعنى منطقك فاشتقت لرؤيتك ولئن أنظر إليك ثم أموت أحب إلى من أن أعيش ولا أراك عند ئذ أبان الله عدم إمكانية الرؤية فليس لبشر أن يطيق النظر إلى ذاته العليا وهذه قصة تبين لنا عظمة الإله وقدرته .

أما حين يحكى القرآن عن موقف موسى والخضر والأفعال التى جرت والتى بين الخضر سرها بعد ذلك كالغلام الذى قتله والسفينة التى خرقها والجدار الذى أقامه والأسرار التى وراء هذه الأمور كلها فذلك مردوده أن الله أراد أن يعلم نبيه أن العلم لا يدرك مداه وحتى الأنبياء لا يصلون لمنتهاه فلا يرى المرء نفسه أعلم بنى جنسه لأن علمك هو علم بظواهر الأمور ترى بعينك ما لا أراه بقلبى وما أفعله لحكمة عندى تنكره أنت

على والقرآن بذلك أراد أن يبين أن فوق كل ذى علم عليما وأن الله يهب من عباده ما يشاء من الأسرار والعلوم فالعلم الذى علمه الله للخضر ولم يعلمه نبيا كموسى هذه الخصوصية كما يقولون فى القاعدة لا تقضى الأفضلية والقرآن كما بين أن لموسى معجزات بين أيضا أن لغير الأنبياء كرامات .

ومن ذلك فليس كلام بيرك إلا محاولة للنيل من المعانى والمحاورات ومرجع ذلك أن تناولها إنسان لم يحمل قلبا مؤمنا مصدقا وبالتالى أخذ يفسرها حسب الفكر البشرى القابل للخطأ والصواب ولكنه لو أنصف كما أنصف غيره من المستشرقين لقال (لوجد القرآن بفلاة ولم يعرف من جاء به لعلمنا أنه جاء من عند الله) وعلى هذا فأسلوب القرآن ومعانيه لمن يفهمها على وجهها الحقيقى ويعلم ما تنطوى عليه من حكم وأسرار وهذه القصة ليس فيها شىء من الغموض إطلاقا ومن أين يأتى هذا الغموض وقد كشف عن أسباب هذه الأمور المطروحة فى القصة والإلهامات الإلهية التى كانت سببا فى فعله لها أو قيامه بها وجاك بيرك كان يمكن أن يظل ادعاؤه قائما لو لم يكشف عن الحقيقة لذلك ستظل دعواه باطلة لما ورد فى القرآن من دعاوى حارة للتدبر والتعقل والتفكر .

الفصل الخامس

بيرك يحاكم القرآن بمقاييس ملتوية

إن ما أثاره چاك بيرك من علامات استفهام حول النص القرآنى يؤكد فى تقديرى أن ترجمة القرآن أو ترجمة معانيه يجب أن تكون مهمة إسلامية وليست مهمة استشراقية بل إن هذا يجعلنى أتساءل هل المسلمون معنيون بترجمات الإنجيل أو ترجمات العهد القديم ؟؟ والواضح أن هذة المهمة ليست مطروحة على جدول أعمال المسلمين لا لأنهم عاجزون بل لأنهم يريدون أن يأخذوا الفكر الدينى للمسيحية واليهودية من أهل الذكر والاختصاص الذين يؤتمنون على الترجمات التى يقدمونها وعلى ذلك فأعتقد أن من حق المسلمين بل من واجبهم القيام بترجمة القرآن إلى اللغات غير العربية لأنهم هم الأقدر على فكر القرآن ومراميه ذلك فضلا عما لديهم من حس وذوق عربى فكل ترجمة صادرة عن غير المؤسسات الإسلامية ومن غير العقل الإسلامى تعد أعمال هواة مغرضين ولا يمكن أن تكون مصدرا فى الفكر الدينى للإسلام ومن هنا أنظر إلى عمل چاك بيرك وإلى كل الأعمال الاستشراقية التى ظهرت وتظهر حول النص القرآنى وحول الفكر الإسلامى بشكل عام فأتحفظ عليها لأنها أعمال صدرت عن غير متخصصين بل غير مؤمنين وهذه حضارة مذاهبها الفكرية رغم تعددها وتميزها إلا أن مرجعيتها الأساسية ، هى الفكر الوضعى الغربى سواء كان فكرا وضعيا بالمعنى الليبرالى أو بالمعنى الشمولى هذه حضارة لا تعترف بالعلمية ولا بالحقيقة إلا للفكر النابع من الواقع الذى يخضع للحواس وللتجارب الحسية والعقلية أى أنه لا يعترف بغير عالم الوجود وبغير كتاب الكون مصدرا للمعرفة الحقيقية والعلم الحقيقى ، هذا بينما العلم الدينى بشكل مطلق والفكر الإسلامى

بشكل أخص يقول إن المنهج ليس فقط أسيرا للفكر الوضعى والواقع المادى وإنما هناك كتاب الوحى والغيب وعالم الشهادة ومن ثم فأنا ألمح فى كل الاعتراضات ووجهات النظر وعلامات الاستفهام بل كل الإشكاليات التى أثارها بيرك أنه يحاكم الوحى بمقاييس عالم الشهادة ومقاييس الفكر الوضعى بل يحاكم المنهج القائم على ساقين : ساق الوحى وساق الوجود ، بالمنهج القائم على ساق واحدة فقط وعلى ذلك فأقول إن الناظر فى كتاب هو وحى سماوى يعتبر أن معرفته وتفسيره بالنسبة لهذا الوحى هى معرفة نسبية وهذا هو الذى يفسد التوافق بين الأكتشافات والإشارات العلمية فى القرآن مما جعل عددا من المفكرين العلميين الغربيين يهتدون للإسلام فكلما ارتقى العقل الإسلامى زادت اكتشافاته فى النص الإسلامى فالعلماء والمفسرون وقفوا أمام آيات قرآنية وفسروها بالمستوى الذى وصله العلم فى عصرهم فلما تقدم العلم أصبح لهم تفسيرات جديدة .

إذن ما لم يفهمه " چاك بيرك " وما جعله موطنا للشبهات وعلامات الاستفهام هو ثمرة لمقاييس قاصرة هى نبت العلم النسبى ولمعايير ومناهج هى نبت الوضيعة التى لا ترى الحقيقة والعلم إلا فى الواقع المادى بينما إذا نظرنا بهذا المنهج الذى يرى نسبية العلم البشرى إزاء الوحى الإلهى فسنجد أن ما لم يفهمه بيرك هو أمر طبيعى لأنه لم يستطع أن يفهم من النص القرآنى إلا ما هو نسبى متعلق بحدود علمه و حدود وضعيته المنطقية وهذا هو الواقع التجريبى بالنسبة لموقف العلم الإنسانى من النص القرآنى ، ذلك العلم الذى يتنكر للوحى ولعلاقات الأرض بالسماء وعلى ذلك فمفهوم العلمية فى العقيدة مفهوم متناقض فى المناهج الوضيعة الأوروبية مما يجعلنى أقول لچاك بيرك إننا ندرك وجود الله فى هذا الكون بالعقل وليس بالنص القرآنى ، لأن النص فى عقيدة المسلم حجة لكن حجيته مترتبة على صدق الرسول الذى جاء بهذا النص وحجية الرسول وصدقه متوقفة على وجود إله أرسل هذا الرسول إذن فالتسلسل المنطقى فى النظرة الإسلامية يدعو المسلم إلى الاستدلال والإيمان على وجود الله وبمعاير عقلية لأن هذا الاستدلال والإيمان على وجود خالق لهذا الكون يترتب عليه إرسال الله للرسل لهداية خلقه وصدق هؤلاء

الرسل هو الذى يعلمنا حجية الكتب والنصوص التى جاءوا بها إذن نحن ننظر فى كتاب الكون المصنوع البديع فندرك بعقولنا وجود صانع قادر مدبر لهذا المصنوع وننظر إلى كتابنا باعتباره وحيا إلهيا نرى فيه علما ويقينا لا يخضعان للتجارب الحسية وإذا كنا نؤكد بنسبية المعرفة البشرية وإذا كانت هذة المعرفة تدرك كل يوم جديدا فى القرآن أليس محاكمة القرآن هى أشبة ما يكون بالإنسان الذى يتوهم أن الكون ينتهى عند الأفق الذى تبصره عيناه ؟ أليس فى هذا اعترافا بأن البصر الإنسانى أو حتى البصيرة الإنسانية محدودة وأننى قد أدرك غدا ما لا أدركة اليوم كما أعقل غدا ما لم أعقلة اليوم؟

إن مفهوم العلمية بمنطق الحضارة الغربية ليس هو المفهوم العلمى فهم لا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا ولا يدركون الأجزاء من الحقيقة بمعنى أننى إذا وقفت علميتى عند حدود ثمرات الحواس الإنسانية وهذه الحواس نسبية لأنها حواس إنسان محدود الإدراك ولا أعتقد أن إنسانا سويا يزعم لنفسه أنه يدرك المطلق بدليل أنه هو ذاته يتطور فإذا آمنت وهذه قضية دينية بأن هذا القرآن هو وحى إلهى أدركت تبعا لذلك أنه مظهر لتجلى العلم الإلهى الكلى والمحيط وأن علمى وعلم الإنسان بشكل عام هو نسبى وبالتالى فكل علامات الاستفهام المثارة حول هذه القضية ستتبدد كذلك إذا أدركت أن تفويض الأمور الغيبية لله فهذا ليس لونا من الغفلة أو لونا من العجز وكذلك هذا التفويض ليس غريبا عن النظر العقلى بل هو ثمرة لإيمانه .

إن الموقف العاجز عن إدراك كنه بعض الأمور لا ينفى علمية الإنسان لأن ذلك مألوف فى عالم الشهادة ونحن ندرك الصفات والخصائص والوظائف لكثير من الظواهرالطبيعية ولا ندرك كنه وحقيقة وجوهر هذه الظواهر فإذا كنت أقف عاجزا عن إدراك جوهر وكنه الكهرباء مثلا فكيف يطلب منى أن أدرك كنه الجوهر والهوية فى أمور عالم الغيب والإسلام هو أكثر الديانات السماوية اقتصادا فى المغيبات كما أن التفاصيل الدقيقة لعالم الغيب ليست شرطا فى العقيدة إنما أصول الإيمان فيما يتعلق بالدين الإسلامى ثلاثة : الإيمان بالإله الواحد والإيمان بالبعث والجزاء والحساب والإيمان بعمل صالح

يكون هو المؤهل للدار الآخرة .

إن عقلانية العقيدة الإسلامية حقيقة اعترف بها الكثير من الباحثين الغربيين وكذلك اعترفوا بقصور المنهج الوضعى الذى أصبح حقيقة تتحدث عنها المدارس الفكرية الغربية والموجة المادية السائدة وعلى ذلك فهذه الوضعية التى يحاكم بها چاك بيرك القرآن سقطت باعتراف أهلها ويعاد النظر فيها الآن بينما يظل المنهج الإسلامى المتوازن الذى أقام الوسيطة الجامعة بين عالم الغيب والشهادة تظل له مكانته الرفيعة ونظرته المتميزة للعقل ، بينما مفهوم العقل عند بيرك بل فى الدرسات الغربية هو جوهر مستقل وأن الفكر ثمرة للمادة لأنه ثمرة للعقل، والعقل مادة ، وعلى صعيد آخر نجد هذا المفهوم فى الفكر الإسلامى مصطلحا له مضمونه وهذا المضمون مغاير لكل المضامين الغربية ، لأنه لطيفة إلهية لها تعلق بالقلب ولذلك فالقرآن يتحدث عن الفؤاد كمصدر للتعقل انطلاقا من أن العقل فى المفهوم الإسلامى ليس معزولا عن الوجود وعلى هذا فليس من حق چاك بيرك أن يعامل القرآن بالاحتكام للعقل بمفهومه الغربى وإنما المطلوب منه أن يتعامل مع القرآن بمنطق العقل والفكر الإسلامى ، وهذه بديهية ، لأننى إذا أردت أن أتعامل مع العلوم الطبيعية لابد أن أتعامل معها بمنطق هذه العلوم ، وكذلك إذا أردت أن أتعامل مع الفكر الدينى لابد أن أتعامل معه بمنطق وبمصطلحات ومعايير هذا الفكر ، ومن ثم فتعميم چاك بيرك لمضامين ومصطلحات ومناهج الوضعية الغربية فى تعامله مع الإسلام يجعل موقفه شديد التناقض مع العلمية التى ينادى بها ، وتلك سقطة كبرى .

وما يقال عن " دنيوية الإسلام " وإطلاق هذا التعبير على نظام يعد تواجد الله فيه هو المنظم لكل حركات الحياة ؟؟

يقول الدكتور عمارة :

أعتقد أن هذا النص لبيرك هو نموذج للخلط ، وإذا قلت الجهل فإننى لا أتجاوز الحقيقة لأن الإسلام يتحدث عن أنه دين دنيوى لكى يميز منهجه عن الشرائع والرسالات التى وقفت عند مملكة السماء ولا شأن لها بالحياة الدنيوية وجعلوا من أمتهم أمة تخضع لكل قانون ولكل حاكم بصرف النظر عن علاقة هذا القانون وهذا الحاكم بالشريعة

السماوية .

والإسلام عندما يشير إلى دنيويته يريد أن يقول إنه متكامل وإنه " دين ودنيا " وهو أيضا "روح ومادة " فدنيويته ليست معزولة عن دنياه ، فالإسلام عقيدة وشريعة وهذه الشريعة هى وضع إلهى لتنظيم دنيا المسلمين ولتكون إطارا لقانون إسلامى متطور وإذا كانت العلمانية هى من العالم أى من الواقع وأنها مقابل للدين وللمقدس وللوحى إذن هى دنيوية لا علاقة لها بالدين ومن هنا هى مرفوضة بمقاييس الإسلام لأن الإسلام لو كان دنيويا لا علاقة له بالدين لكان علمانيا لكنه يرى فى هذه العلمانية الواقع غير المحكوم بالشريعة أو الوضع الإلهى ، فالإسلام يرى فيها لونا من الانفصام بين ما هو دينى وما هو دنيوى ومفهوم العلمانية الغربى هو مفهوم مخالف لمفهوم الدنيوية فى الإسلام الذى هو شق وليس كلا والآيات التى يشير إليها چاك بيرك تؤكد هذا المعنى الجامع لمنهج الإسلام بين الدين والدنيوية ، فالرسول بشر أتاه الله الكتاب والحكم والنبوة وليس من حقه ولا من سلطانه أن يقول للناس كونوا عباداً لى لأنهم عباد الله ، ولكن الرسول يدعوهم لأن يكونوا ربانيين حتى يجمعوا بين البشرية والربانية ، بمعنى أنهم يحتكمون فى تنظيم هذه الحياة الدنيا إلى الشريعة الإلهية ، لذلك فالآية لا علاقة لها بالتناقض .

وعن موضوع اغتصاب السلطة فالإسلام يحرم اغتصاب السلطة الدينية لأن هذة السلطة تعنى الحكم على العقائد ـ وهذه سلطة الله والبشر الذين ينتزعون لأنفسهم الحق فى الحكم على عقائد الناس فتلك مسألة أخرى وإذا كان الإسلام يهدم السلطة الدينية التى عرفت فى الغرب فإن الشريعة الإسلامية هى التى تحكم الدنيا بمعايير الشريعة الإلهية وتطور الفقه الإسلامى بما يساير ويواكب الواقع الدنيوى المتغير .

وأعتقد أن چاك بيرك غريب عن أن يفهم تميز المنهج الإسلامى فى علاقة الدين بالدولة وكيف أن جمع الإسلام بينهما جعله منهجا متميزا عن المناهج الأخرى التى سادت الحضارات المختلفة، وإذا كان چاك بيرك قد وقع فى هذا الخطأ فقد وقع فيه قبله الشيخ على عبد الرازق عندما استشهد بهذه الآيات على علمانية الإسلام .

إن السمة الموضوعية التى يحاول أن يضفيها بيرك على معالجته لمشكلات النص

القرآنى تقوم فى الأساس على اقتباسات من نصوص وآراء تتضمنها أمهات المراجع فى المكتبة القرآنية غير أنه مما يدخل القصور على هذه الموضوعية المدعاة أنها ذات طابع اصطفائى فى جوهرها .

بمعنى أن چاك بيرك لا يقوم بعرض شامل لمختلف الآراء فى المسألة الواحدة ولا يبدى لنا معاييره التى على أساسها ينتقى وإنما يقع مباشرة على الرأى والقول الذى هو قابل للتأويل أو يحمل أوجها عديدة مما يجعله قابلا لأن يحمله بيرك بمضامينه التى يمكن أن يقال إنه قد فرغ منها قبل أن يباشر النص وأحسب أن هذه الأسطر القليلة تطرح فكرة من أخطر الأفكار وأولاها بالدراسة فيما يتصل بالقرآن .

إن عبارة چاك بيرك تتخذ من أفرع اللغويات الحديثة متكأ منهجيا وأداة بحثية للتعامل مع النص القرآنى . وإنجازات اللغويات الحديثة هى محل اعتراف الآن من جميع المشتغلين بالعلوم الإنسانية ولعل الميزة الكبرى لهذا العلم أنه يقدم على اختلاف مدارسه منظومة متدرجة ذات علاقات هرمية بين عدد من مستويات التحليل الصوتية والصرفية والتركيبية والمقامية بحيث تكون هذه المنظومة بمثابة المنشور الثلاثى الذى يحلل شعاع الضوء إلى ألوان الطيف السبعة وبهذا يتحول ما كان كلا واحدا إلى عدد من المكونات التى تشكل فى مجموعها نمطا من العلاقات المعقدة ذات الدلالة الفذة والتى لا يمكن إدراك أبعادها إلا بهذا النوع من التحليل ، وهنا يقترح چاك بيرك ما يسميه علم الدلالة المتدرج ولعله يعنى بذلك توزيع مباحث علم الدلالة على مستويات التحليل السابق ذكرها ، وينشأ عن ذلك فحص دقيق للدلالات الوظيفية على المستويات الصوتية والصرفية والتركيبية للدلالات العقلية المستمدة من علاقات الجوار اللغوى فى النص وللدلالات المقامية المستمدة من تفاعل المقال مع المقام لذلك نعتقد أن هذا المستوى الطموح من المقارنة العلمية للغة القرآنية لا يمكن مواجهته بالرفض ولكننا نقول إنها مهمة تعد غاية فى الصعوبة ولا نعتقد أن چاك بيرك قد قام بها على الوجه المطلوب .

والأولى أن نعدها من التحدى العلمى الذى يهيب بنا أن نواجهه مواجهة علمية صارمة . ولعل هذه الفقرة من كلام چاك بيرك تضعنا فى قلب الحوار الساخن حول مشكلة

الغموض فى التعبير القرآنى . إننا لا نملك فى هذا المقام إلا أن نذعن لقول القرآن نفسه عندما ينص على أن من آياته محكما ومتشابها . كما أننا لا نملك أيضا إلا أن نتلقى بالقول جهود علماء أصول الفقه عندما يتحدثون عن الدلالة القطعية والدلالة الظنية فى القرآن ويحددون مراتب الوضوح من ظاهر ونص ومفسر ومؤول ، ومراتب الغموض من مجمل ومشكل ومتشابه .

وإذا لم يكن فى دلالات التعبير ما يسمح بالتأويل والاجتهاد فلماذا إذن تعددت التفاسير طوال خمسة عشر قرنا من الزمان .

إن العبارة القرآنية قدمت حلا أمثل لدرجات من التلقى تتفاوت تفاوتا عظيما ولكنها تلتقى جميعها على الإذعان لجمال النص وجلاله ولم يكن هناك بد من ذلك فى نص كالقرآن يمكن تلاوته وإعادته فى لحظة من الزمان أما طبقات المعنى فى العبارة القرآنية فإنها تتجاوز حدود الزمان والمكان وهو ما يحدثنا عنه القرآن نفسه حين يقول : " ولو أن فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله " وقوله أيضا " قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا " وعلى ذلك فالآية لا تتحدث عن المداد الذى نكتب به فالذى لا شك فيه أن القرآن من هذه الوجهة يمكن أن يخط على القرطاس دون أن ينفد المداد ولكنها تتحدث عن طبقات من المعنى يتفاوت حظ البشر من الإحاطة بها وتلقيها واستبطان أسرارها وهنا يبرز دور اللغويات الحديثة وعلم الدلالة المتدرج الذين تحدث عنهما بيرك وينكشف النص عن وجوه الإعجاز التى لا يحيط بها عصر أو جيل بعينه . وإنما تصاحب الإنسانية فى رحلتها من المبدأ إلى الميعاد . ولهذا كله أجدنى متفقا مع أطروحة بيرك فى هذا الصدد وأرى أنه يشكل تحديا يقربنا الاستجابة والمواجهة إذا كنا حريصين على تجلية أوجه الإعجاز فى كتابنا العظيم : "القرآن الكريم " .

حين يقرر چاك بيرك من ذاته أو نقلا عن علماء الإسلام أن النص القرآنى يتعدى الزمان والمكان فتلك حقيقة مؤكدة . والسبب الذى جعل منها حقيقة ولم يستطع بيرك أن يقبله أن القرآن خوطبت به البشرية كلها فهل يكون من المنطقى أن نصا على هذا

المستوى يقف عند حدود زمان أو مكان خاصة أن النص القرآنى بهذا المعنى يعكس عمومية رسالة الإسلام .

أما ما يستشهد به من أن المفسرين قد انتهوا إلى إلغاء بعض الآيات فهذا أمر غير واضح فى ذهنه بل هو أحد إسقاطاته المشوشة فإذا أحسنا الظن به قلنا لعله يريد ما بات مقررا من إلغاء بعض الأحكام الشرعية التى تتضمنها بعض الآيات فى صدر نزول الوحى تجاوزتها أحكام أخرى فى آيات نزلت فى آخر زمن الدعوة فيما يعرف بظاهرة النسخ فى الأحكام الشرعية وهذه لها مبرراتها الموضوعية والعقلية إذ يتعلق الأمر بتغيير مجتمع بأسره من جاهلية وباطل إلى حق ونور ولنأخذ مثلا ظاهرة التبنى التى شكلت أساسا اجتماعيا متينا فى مجتمع الجاهلية واحتاجت إلى إنزال كثير من الآيات لإبطالها مشفوعة هذه الآيات بالتطبيق العملى من الرسول وصحابته وحتى تم اقتلاعها بإبطال آثارها وتزوج النبى بمطلقة متبناه . فهل تم بعد ذلك إلغاء لهذه الآية ؟؟ التى عارضت واقعا قويا فى هذا الوقت الذى بات معه الرسول وهو على خشية من مواجهته ؟ وإذا ما أخذنا مثلا آخر مثل آيات تحريم الخمر والتدرج فيها والتى جاءت على الرغم من أمزجة الجاهليين ، نجد أن هذه الآيات التى مثلت فترات متدرجة بقيت كلها ضمن آيات القرآن ولم تلغ الآيات السابقة بالآيات اللاحقة برغم انتفاء أو ألغاء الأحكام السابقة بما تلاها من أحكام . فهل يعد مثل ذلك إلغاء من المفسرين أو غيرهم لآيات فى القرآن استعصت على أفهامهم ؟

أما ما يقوله " بيرك " من أن هناك آية بعينها هى من أصعب ما فى القرآن نظما وتفسيرا وتصريح المفسرين بصعوبتها مع أن فهمها يسير للغاية كما يقول " بيرك " فنقول له لم يصرح بصعوبتها إلا واحد فقط من المفسرين هو الإمام الواحدى ورغم ذلك لم ينبهنا إلى وجه الصعوبة فيها وإن كانت تتطرق إلى موضوع هو غاية السهولة لكنه جاء على غير هوى الكثيرين من أهل الكتاب والمشركين وهذه الآية تعنى أن أهل الكتاب والمشركين ظلوا على كفرهم حتى جاءتهم البينة وهى رسول الله فعندما جاءتهم تفرقوا فدخل بعضهم الإسلام وظل بعضهم على كفره وبهذا يتفق معنى هذه الآية مع الآية

التالية لها وهى قوله : " وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة " .

والإيحاء الظالم الذى يريد " بيرك " أن يبثه فى الناس والمسلمين خاصة . هو أن يخيرهم بين أمرين أحدهما أن يسلموا بسهولة نص قرآنى . على حين أن تعصبهم يجعل صعوبة هذه الآية إشكالا يصعب تجاوزه . أو يسلموا بتصريح الآية بأن أهل الكتاب والمشركين كانوا مؤمنين وما تفرقوا إلا بمجىء هذا الرسول ؟؟

على أن القرآن لو لم تتسع ألفاظه ليشمل دنيا واسعة من المعانى تستوعب الزمان والمكان ما كان لچاك بيرك نفسه أن يصرح وينشر على الناس أنه قد وقع على كنوز من المعانى والمعارف العلمية أوصى بأن توضع ببعض دور العبادة ولا تنشر تفاصيلها على الناس إلا بعد موته وهذا أمر ساق بين يديه سره حين أجاب بقوله : إن هذه المعانى والمعارف ولا تطيقها أفهام الغربيين والشرقيين على السواء فى هذه الأيام ولا تتسع لها حضارتهم وثقافتهم وفى هذا يقول " چاك بيرك " نصا : " لقد قررت وضع الكشوفات الجديدة التى وجدتها فى القرآن والتى لم يتطرق إليها أحد قبلى فى نصوص عديدة مختومة توضع فى المركز الوطنى لحفظ الوثائق بباريس ، وسوف أطلب منهم فتحها بعد مرور ٥٠ عاما أو يزيد لأن المجتمع العربى والإسلامي لن يرحب بها الآن ".

وقد قيل هذا الكلام بمناسبة إصدار " موريس بوكاى " كتابه : " القرآن والإنجيل والتوراة والعلم " .

فهل مثل هذا الذى وقع عليه چاك بيرك يصدر عن نص محدود بزمان ومكان كما قرر فى ادعائه ؟؟

وعموما كنا نتمنى من چاك بيرك أن يمتلك شجاعة الحق والإيمان وينشر كشوفه على الناس ويتحمل تبعة ومشاق ذلك تماما كما فعل من قبله أحد المفسرين المصريين وهو " طنطاوى جوهرى " حين كانت له كشوف قرآنية أيضا ".

والقضية أن هذه الحقائق لو كانت صحيحة فإنه يخشى على أوروبا بل على العالم الغربى كله الدخول فى الإسلام وتحقيق مقولة " برناردشو " " إن العالم كله سيصبح مسلما " .

أما ما يزعج چاك بيرك من أن القواعد لا تسمح لقراء المسلمين ومفسريهم بهذا الانتصار الذى يظهرونه عند قراءة الآية ." هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون " " فليسمح لى چاك بيرك بأن يجيبنى " ماذا يقصد بالقواعد ؟ إن كانت قواعد القراءة ، فقراءة القرآن فى مثل هذه الآية ما اختلف عليها أبدا فى لفظ من ألفاظها ، وإن كان يقصد قواعد اللغة وهو ما نظنه . فإنه قد سقط سقطة كبيرة . لأن القواعد تقرر أن التابع وهو هنا للتوكيد بكل لابد أن يتبع متبوعه مباشرة .

ويتفق معه فى المعنى . وهنا لا يصح القول بأن لفظة " كل " توكيد لدين الحق فى وسط الآية. وإنما هى توكيد للفظة الدين فى آخر الآية .. ويؤكد هذا أن لفظة " كل " معناها "الجمعية" و " الإحاطة " ولا يوكد بها من الألفاظ إلا ما كان جمعا . ولفظ الدين واحد ومعناه جمع ونظير ذلك فى القرآن قوله سبحانه وتعالى فى سورة النور " والطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء " والمراد هنا الأطفال وليس طفلا واحدا .

هناك العديد من المؤشرات بالنسبة للعالم الغربى تعكس فزع هذا العالم من الإسلام وأبرز هذه المؤشرات هو ما يفعله بيرك الآن أو ما خرج علينا به من ترجمته للقرآن وهو بذلك يكرر نفس ما قاله جلادستون " ما بقى هذا القرآن يتلى فلن تستطيع أوروبا أن تسيطر على المشرق بل لن يستطيع الأوربيون أنفسهم أن يعيشوا فى مأمن ."

وأنا أعتبر هذا الفزع هو نتيجة حتمية لأن هذا العالم بدأ يشعر أن حضارته التى قامت على عبادة القوة وعبادة المادة ولإشباع الحاجات الغريزية بدأت تشعر أن هذا الاتجاه يسير بها صوب الانهيار والإفلاس إذ أن إنسان هذه الحضارة أصبح يستشعر الفزع الروحى والنفسى بما يحمله على أمرين أولهما الكفر بواقعه ثم محاولة التخلص من هذا الواقع فى صور مختلفة تعبر عن نفسها فى كثير من النماذج ولقد كانت مقولة " جلادستون " هذه بمثابة الضوء الأخضر لخروج جيوش المبشرين لنشر المسيحية فى المقال الأول ثم ليدرسوا الواقع الإسلامي وأثر القرآن فى الدعوة وكيف جعل هذا القرآن منهم نماذج متميزة بأنماط معينة من السلوك تؤكد اكتمال الإنسانية ومن هنا بدأوا

يشعرون أن هذا البناء الفكرى للإنسان يشكل خطرا على الغرب لماذا ؟؟ لأنه سيحول دون قبول الأفكار الأوروبية التى تناقض سلامة تكوين الإنسان ولقد كانت مسيرة التبشير هذه تقوم على محورين الأول هو الاهتمام بالتصوف وهو فى ذاته مقبول إسلاميا لكن التصوف الذى كان يدعو إليه هؤلاء هو العزوف عن الدنيا لكى يتركوها لهم الأمر الثانى هو تأريث التجزئة فى العالم الإسلامي عن طريق اهتمام هذه الكتائب بتأريث الفرق الإسلامية ومن هنا يحاول چاك بيرك أن يستعيد التاريخ بل يستعيد فزع جلادستون ومن هنا أيضا يفتقد چاك بيرك أبسط قواعد البحث العلمى التى لا تتأثر بنزعات خاصة ولا بانتماءات مذهبية فالحق ضالة الباحث يأخذه حيث وجده وليس لنا من كل هذا إلا أن ندعوه إلى مناظرة حول أفكاره التى يدين بها القرآن ذلك مع علمى التام بأن هذا الكلام ليس موجها للمسلمين بل للغربيين حتى يكون هناك سد بينهم وبين التوجه للإسلام وانتشار ظاهرة المد الإسلامي وأقول إنه إذا كان الواقع الإسلامي الآن يشوبه بعض التناقض فمنطقيا لا ينبغى أن تحاسب العقيدة بسلوك أتباعها ولكن تناقش فى ذاتها أصالحة هى أم غير صالحة ثم إن نجاح العقيدة أو عدم نجاحها ليس چاك بيرك هو الذى يقرره إطلاقا لأن هذه العقيدة سبق تطبيقها منذ ١٥٠٠ سنة بنجاح رائع وطوال فترات من تاريخها ويكفى أنها مستمرة حتى اليوم وعدد من ينتمون إليها يصل إلى مليار و ١٠٠ مليون بل ونجد كل يوم من يهفو إليها فى عالم الغرب . إن مسألة تخلف المسلمين بصفة عامة إذا أراد چاك بيرك أن ندله على من هم السبب فى الإنفصال بين الإسلام والمسلمين فليبحث هو فى تاريخ الافتراءات التى قام بها أسلافه ونظراؤه من المستشرقين فيما ادعوه من اتهامات باطلة حول الإسلام .

إن رغبة " چاك بيرك " فى قلب آية " لكل أجل كتاب " هى نوع من الحرص الأعمى على إدانة الإسلام والإساءة إليه و هى فى تقديرى تعبير صادق عن الإحساس لديه بالهزيمة ولقد سبقه كثير من اليهود الذين كانوا يعاصرون الرسول ويسمعون الآيات فيترجمونها بحساب (الجُمَّل) ويخرجون من هذا الحساب بالعمر الذى يقدرونه للرسالة المحمدية ، ولقد قدروا عمر هذه الرسالة بمائة وأربعين سنة وسعدوا بهذا لأن المعنى أنهم

سيفرغون منها بعد زمن قليل ومع هذا كذبهم الواقع وتحولت المائة والأربعون عاما إلى خمسة عشر قرنا وحتى اليوم ... ليأتى جاك بيرك ويكشف عن هذه الأمنية المحبوسة فى أن يكون " لكل كتاب أجل " بمعنى أن القرآن قد انتهى من أجله وفرغ العالم منه ومثل هذا التفكير يكشف عن انسياب الرؤى اليهودية والأفكار الصهيونية فى فكر جاك بيرك بوعى وبدون وعى .

وبالعودة للطبرى نريد أن نقرر أن هذا التفسير ليس تفسيراً لأبى بكر وليست مقولته وأن الذى رجع إليه جاك بيرك هو رأى " الضحاك " ورأى أبى جعفر وقد جاء ذلك من الاستشهاد بقراءة أبى بكر لآية " وجاءت سكرة الموت بالحق " والتى قرأها " وجاءت سكرة الحق بالموت " ومن هنا لا نرى لجاك بيرك الحق فى الاستنتاج الذى وصل إليه فهو لم يستوعب الآية كاملة ولم يفهم سياقها وإنما بتر جزءا منها ليصل لغرضه بينما الآية تتحدث عن الرسل السابقين والكتب السابقة وأن الله جعل لكل كتاب أجل ينزل فيه من السماء وأنه سبحانه يمحو ما يشاء ويثبت وقد جاء القرآن مصدقا ومهيمنا عليها وله صفة الاستمرارية وعلى ذلك فليس لجاك بيرك أن يقيس القرآن على الكتب السابقة لأن له شأنا آخر وما دام جاك بيرك ارتضى ضرورة إخضاع القرآن لقواعد اللغويات الحديثة فما كان ينبغى له أن يتورط فيما تورط فيه من بتر النص والخروج بدلالة سريعة يرفضها السياق ثم أن معنى كلمة آية كما ورد فى السياق يقصد بها الآية الكونية التى يظهر الله عليها رسولا من رسله تأييدا له وإفهاما للمعاندين كما أن الذى يلقى ظلالا على هذا المعنى ويوضحه هو سبب النزول وهو أن قريش كانت تطلب من الرسول معجزة كالتى ظهرت على يد موسى وعيسى فبين الله أن المعجزات لا تخضع لمطالب الرسل ورغباتهم وإنما هى اختيار الله لما يناسب القوم من معجزة فيثبت منها ما يشاء .

كل ذلك يجعلنا نثق أن بيرك لا يتعامل مع القرآن كنص إلهى ولا يطبق ما نادى به من نسبية تاريخية على الكتب الأخرى فربما كانت صالحة لذلك لكنها إزاء القرآن فالتفكير المنطقى يرفضها تماما .

الفصل السادس

الإسلام منهج عالمى

هناك فرق بين مشكلة الإسلام ومشكلة المسلمين . والفواصل التى توضع بين العقيدة والواقع هى فواصل وهمية لا يستطيع أن يسلم بها أى باحث متفهم للغة الخطاب الإسلامي ، لأن العقيدة داخلة فى نسيج الحياة ذاته ، فمثلا حين يتحدث القرآن عن البنية السياسية للمجتمع فإنه يوردها فى آية تربطها بالسلوك الإنسانى ويتضح ذلك فى قوله تعالى " والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة ، وأمرهم شورى بينهم " .

فأنت هنا تتلقى الخطاب باعتباره نصا محيطا تتداخل فيه عناصر إيمانية وسياسية واجتماعية وبالتالى يصعب التسليم بمسألة انفصال العقيدة عن الواقع فى الفكر الإسلامي لأن مختلف الأحكام القرآنية المتصلة بواقع الحياة ومعاملات الناس ترتبط دائما بالبعد الإيمانى والعقيدى . وبصفة عامة القرآن خطاب إلى العقل والضمير ينعكس أثره على الواقع والحديث النبوى القائل : " من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له " فيه إشارة إلى أن الموقف الإيمانى لا بد أن ينعكس على الواقع أيضا .

وإذا كنا نتحدث عن الإسلام فإن تعميم القول بالانفصال بين العقيدة والواقع هو موقف متعسف يكشف عن قراءة مبتسرة للخطاب القرآنى والإسلامي بشكل عام . أما عن علاقة المسلمين بالعقيدة فإننا لا نختلف كثيرا فى أن قطاعات كبيرة من المسلمين تقيم ذلك الفاصل فى سلوكها بين التزامها العقيدى وبين الأداء والمعاملات اليومية ، وهذا يكشف عن أمرين : أولهما يتمثل فى حاجتنا إلى ترسيخ الفهم الذى يربط العقيدة بالواقع .. والثانى يكشف عن الأثر السىء لدعوات فصل الدين عن المجتمع .

ويرى فهمى هويدى أن هذه مسئولية المسلمين وليست مسئولية الإسلام الذى هو خطاب للبشر كافة . ويضيف : هذا الخطاب الذى يفتح آفاقا لا حدود لها فى التعامل مع البشر مما يجعله عقيدة عالمية خاطبت الإنسان بالدرجة الأولى . وتجاوزت كل الآفاق والحدود الجغرافية والعقيدية والعرقية ، فكيف يمكن أن يقال فى ظل هذا إن الإسلام دين متقوقع ؟؟ وإذا جاز ذلك فى الإسلام بكل رصيده المشهود فما الذى يمكن أن يقال فى حق اليهودية التى تخيرت شعبا بذاته واعتبرته شعب الله المختار ؟؟

هذا على صعيد الموقف الإسلامي بشكل عام أما الموقف الفقهى فإن العقل الإسلامي ابتكر ما يحقق إمكانية المواكبة المستمرة لكل ما هو مستحدث ومتغير فى ظروف الزمان والمكان وأعنى تحديدا علم أصول الفقه الذى استطاع به فقهاء المسلمين تحقيق ذلك ... أما إذا تم تعطيل تلك الآلية وتوقفت مسيرة الاجتهاد والمواكبة فينبغى أن نبحث عن تفسير لذلك فى أوضاع المسلمين السياسية والاجتماعية ولا نتعرض باللوم أو النقد للإسلام ذاته ؟؟

ليس بإمكاننا أن نفرق بين القرآن والإسلام ، لأن القرآن هو المصدر الأول للإسلام ، وبالتالى لا نستطيع أن نضع الإسلام فى موضع اتهام ونفصله عن القرآن ، فنص القرآن هو المنبع الأول لما يمكن تسميته بإمكانيات الإسلام وقد كان بإمكاننا أن نقبل هذه المقولة لو انصرفت إلى المسلمين واعتبرت قدراتهم دون مستوى حمل القرآن أو التعبير عنه على نحو صحيح ... وذلك ما لا سبيل إلى الاختلاف حوله ...

أما وضع الإسلام موضع الاتهام فهذا هو المنطق المختل الذى نختلف فيه كلية مع چاك بيرك ، ولا مجال هنا لعرض قدرات القرآن أو قدرات الإسلام فى صياغة التقدم وتحقيق حلم النهضة ، وإن كنا نذكر أن الحضارة الإسلامية العظيمة ـ التى لا شك أن چاك بيرك يعرفها جيدا قد قامت على أساس من القرآن والإسلام ، ولا يزال عطاء هذا المصدر الجليل قادرا على صياغة التقدم إذا ما عبر المسلمون عن التزامهم الحقيقى بالقرآن ونهضوا بمسئوليته الخلافة فى الأرض وحققوا العدل والقسط الذى هو هدف الشريعة الإسلامية .

كل هذا يجعلنا نربأ بعالم كبير تخصص فى دراسة التاريخ الاجتماعى للعالم الإسلامي أن يتعامل مع الخطاب القرآنى والإسلامي بمنطق التهوين والتجريح كما كنا نتمنى أن يحتفظ بمستواه الرفيع الذى نعرفه عنه فى تناول الأفكار التى يختلف معها . خاصة أن كتابا فى أهمية القرآن الكريم لا يمكن لباحث أن يزعم لنفسه امتلاكا لناصيته وإحاطة بكل أبعاده وأعماقه... وليس هذا ما يفرضه التعامل مع القرآن فحسب إنما ذلك من مقتضى التواضع العلمى ، فليس لأحد أن يدعى امتلاك الحقيقة وتسفيه كل ما لم يعرفه أو يدركه .

لابد أن لا نأخذ كلام جاك بيرك كوثيقة ذات أهمية كبرى ... لماذا ؟؟ لأننا ـ نحن العرب ـ لنا اهتمام شديد بالقرآن الذى هو دستور الإسلام ولكننا لم نستطع الوصول إلى اتفاق حول أشياء كثيرة حوله . فحين يأتى بيرك ويحاول فهم النص فإن ذلك يجب ألا يكون مدعاة للانزعاج ، لأنه لا يكتب للمسلمين ، وإنما يكتب للغرب الذى لا يعرف شيئا عن الإسلام اللهم إلا الكلام غير الدقيق .

فجاك بيرك يتحدث إلى أناس أجهل منه بالإسلام وله أن يقول ما يريد فقد بلغ الإسلام غايته من ١٤٠٠ سنة وأصبح القرآن جزءا من نسيج قلب المسلم أما مقولته بتشخيص مشكلة الإسلام اليوم فهو يقيس الأمور بحضارته ، وهذه الحضارة لسنا مؤمنين بها لأنها حضارة مادية تيسر للإنسان سبل الحياة وأكبر قدر من المتع الحسية ولكنها ليست الحياة كإحساس وقيمة ، والإسلام كانت حضارته إنسانية وما زالت .. ومن يقرر أن يسلم فلن يؤثر فيه جاك بيرك أو غيره .

والعلم الحديث لا يشكل تهديدا مباشرا للعقيدة الإسلامية وربما كانت بعض النتائج الأخلاقية السلبية التى تولدت عن مظاهر هذا العلم دافعا للابتعاد عن أى تقدم علمى يتجاهل الاعتبارات الإنسانية ... ولعل جاك بيرك لا ينسى ما لقيته النهضة العلمة من مقاومة شديدة حين كان الدين يصارع الحقيقة العلمية ... بينما كانت الحضارة الإسلامية تعترف بالتمييز بين ما هو دينى وما هو دنيوى . لذلك اتجهت فى الأغلب إلى صبغ العالم الدنيوى بصبغة روحية بل إنها أضفت على الحقائق الروحية طابعا واقعيا ، وأزالت

التناقض القائم بين العقيدة والواقع المعاش بل خلقت حوارا جذابا بين مبادى الإيمان ونتائج العلم ، وهذا واضح فى كل جوانب حياة المسلمين .

وأذكر بيرك أنه إذا كانت معظم المجتمعات الإسلامية تنتمى للعالم غير المتقدم علميا فهى لم تعان بعضا من المشكلات المترتبة على التقدم العلمى ولذلك كان الأولى به أن يساهم فى دراسة مشكلات العالم الغربى وألا يكترث بالعالم الإسلامي الذى يزخر بعدد أكبر من المشكلات لكنه يخلو من الأزمات الكبرى فى النظم السياسية كما يخلو من صراع الأيديولوچيات .

إن ظهور مثل هذه الترجمات يحتم علينا بذل جهد من أجل مستقبل الإسلام لذلك فمن الضرورى أن يؤدى الفكر الدينى دوره الهام فى إحداث تغيرات اجتماعية جذرية فى العالم الإسلامي وحتى يحتفظ هذا العالم بمكانته العالمية وهيبته فى السياسة الدولية ويصبح له شأن كما كان له من قبل .

الإسلام كمنهج وعقيدة وحضارة لها جانبها المادى وجانبها المعنوى . ورغم أنها أولت الجانب الروحى اهتماما كبيرا إلا أنها لم تهمل الجانب الآخر ... وآيات القرآن وأحاديث الرسول واضحة فى هذا المعنى ، وروحانية الإسلام التى يعيبونها تدعونى لأن أسألهم : لماذا يفرون إليها تاركين حياتهم المادية المتحضرة ؟؟ إنه لو زال هذا التساؤل لما كتب چاك بيرك ترجمته هذه والتى يهدف من ورائها إلى الحد من موجة المد الإسلامي المنتشرة فى أوروبا بل فى أرجاء العالم كله ومن هنا أغلق بيرك بنفسه باب المناقشة لأنه تحدث بشكل غير موضوعى ، وما يقوله بيرك من أن الإسلام أقل من الإمكانيات التى يتيحها له كتابه ليس محل مناقشة بل محل تساؤل: إذ كيف استطاع العرب منذ ما يزيد على ١٤٠٠ سنة أن يتطوروا رغم ما كان يسودهم من جهالات وعادات بالية لا تبعث على الأمل بأى حال لكنهم استطاعوا أن يكونوا أقوى دولة فى العالم حيث خضعوا لكتابهم وأذعنوا له فما بالك بنا اليوم ونحن نعيش عصر المدنية والمعلومات والثقافة . لو أزيلت أسباب التراجع فسينهض العالم الإسلامى يوما ما . وهذه ليست مقولتى لكنها مقولة علماء الغرب الذين قالوا إن العالم الشرقى قاد البشرية مرتين أولاهما قبل الإسلام

والثانية بعده ومن المنتظر أن يقود الشرق الغرب مرة ثالثة . وفى ذلك نجاح المجتمع العالمى .

إن الأديان السماوية مصدرها واحد هو الله ، وقد أتت فى أزمنة مختلفة متباعدة وكانت تتناسب مع قدرات الإنسان الذى عاش مثلا فى عصر النبى موسى أو عيسى أو إنسان عصر الرسالة المحمدية .لكن المعروف أن الأديان كان التوحيد نطاقا أصيلا فيها وبجانبه الخلق الصالح بوجه عام أما التكاليف والتعليمات فكانت تتسق مع تطور العصور . اليهود مثلا اهتموا بالناحية المادية وقتلوا أنبياءهم وأباحوا الربا وأفسدوا قضية الألوهية وجعلوا من الله إلها خاصا ببنى إسرائيل ولغيرهم آلهة أخرى إذن لم يعد الله واحدا فى الفكر اليهودى وبهذا تم تحريف مبدأ الألوهية ... ثم جاءت المسيحية لتصحح الجانب المادى الذى لجأت إليه اليهودية بالإتجاه الروحى ومقولات السيد المسيح أصدق دليل على ذلك لكن هذه الروحانية لم تنفع فى الغرب حين ذهبت المسيحية لأوروبا لأن الغرب آنذاك كان مشغولا بصراع قديم جدا هو صراع الأطماع وبالتالى لم يعبأوا بالروحانية وأهملوا المسيحية لذلك جاء الإسلام كإصلاح تام للبشرية فتقدمت به تقدما واضحا لا ينكره أحد فهو دين فيه من الماديات والروحانيات ما يكفى لإسعاد البشرية ، فلم يدع الإسلام أصلا من أصول الفضائل ولا قاعدة من قواعد النظام إلا وقررها فاستجمع للإنسان من حرية الفكر واستقلال العقل واختار أجمل ما فى اليهودية من قوانين وقيم وأجمل ما فى المسيحية وأضاف على ذلك عالما ضخما واسعا من التشريعات والقيم الفكرية والإنسانية التى لا تزال موجودة حتى الآن وإن انحرف عنها بعض المسلمين !!

والعالم الإسلامي الآن بصرف النظر عن رأى " جاك بيرك " فيه لا يعيش حياة إسلامية فكم فى هذا العالم من المسلمين اسما ، لكنهم ليسوا مسلمين ثقافة وقيما ، وذلك يرجع لأسباب كثيرة ومن هنا تأتى مهمة نشر الفكر الإسلامي على وجهه الصحيح على أن يتولى الأزهر ذلك بقممه الفكرية الإسلامية بعد أن يعيد التفكير فى نفسه ...

إذا كان جاك بيرك واحدا من ألمع المستشرقين فإن التحاور مع ترجمته لمعانى القرآن

ودراسته الملحقة بها تصبح واجبا . و مدعاة للرد على دعاواه فهو ينطلق فى دراسته باسم العلم، وليس كالإسلام حثا على العلم ، والعلم فى ذاته له قوانينه من التجريبية بمنطقها الصورى الناقص إلى الحدس الذى يجب أن يقوم أساسا على حدس الكبت من أجل جزئية معرفية أعتقد أن " بيرك " يعرفها جيدا ، وهو الذى يشير فى دراسته إلى عديد من التيارات العلمية الحديثة من قبل الفينومينولوچيا والبنيوية والأنثروبولچيا وما إليها والتى يدعو الدارس للقرآن الكريم أن يأخذ بأسبابها وبخاصة اللغوية منها ، وإن أثار ذلك غضب المتمسك بعقيدته على حد زعمه !! وهو بذلك يجافى الحقيقة بقدر ما كان يجب أن يشير إلى نتيجة ويدل عليها لأن هذا من شأنه خلق نوع من الإرهاب لقارئه المسلم ممن لا يعرف الدرسات الحديثة . كما أن هذا فيه إيهام لقارئه الغربى بأن المسلمين يبتعدون عن البحث العلمي ويخشون أثره على دراستهم للقرآن ، وياله من زعم تدحضه وفرة الدرسات القرآنية ـ قديمها وحديثها ـ وياله من هوى فى نفس " چاك بيرك " سنظل ننسبه للأنا المجهلة . فهل على حد قول الفرويديين " أى الأنا " Ego لا تقع فى الجهل والتجهيل فحسب ، بل وتطلبه أيضا وهو ما دفع بالفيلسوف الفرنسى "باشلار " بالإشارة إلى هذا فى كتابه " إسهام التحليل النفسى فى المعرفة الموضوعية " ، وهى معرفة ليست مستحيلة لكنها صعبة المنال إذ تتداخل معها وتعوقها مخلفات التنشئة التى لا يبرأ منها كائن إنساني مما يلزم أن تصبح معه الموضوعية الحقة هى الفطنة إلى حتمية الذاتية . وهو ما لا نظن أن چاك بيرك قد فطن إليه بعد لأنه كان مقيدا بتراث معرفى لجمهرة من المستشرقين ، بينما يعلم هو يقينا أن أولى خطوط البحث العلمى عند " هوسيرل " والفينو مينولوچين بعامة إنما هى الإبوجيه Epoche أى تعليق الحكم بمعنى البعد عن الأحكام المسبقة فإبداء الرأى فى قضية علمية ليس حقا مطلقا وإنما هو حق مكتسب أول عناصره أن تكون على معرفة بتراثِ الموضوع ، ومن ذلك فعلى " بيرك " أن يراجع نفسه وعلى علماء المسلمين التصدى والرد والحوار والنشر للناطقين بغير العربية والذين وضع الكتاب بكل ما فيه من أجلهم ...

وإذا كان " چاك بيرك " قد قال فى كتابه " العرب " بإمكاننا أن نكذب على الخصم

لكننا لا يمكننا أن نكذب على الصديق وإذا كان المثل العربى يقول " الرائد لا يكذب أهله " فنحن مازلنا نحسب " چاك بيرك " من رواد الاستشراق يقدر ما نفترض لديه من حسن النية فليصحح ويراجع ما قال وليتجنب التصدى لما هو ليس أهلا له .

عندما يقوم چاك بيرك بترجمة القرآن فإنه ينطلق من معتقداته الشخصية وتكوينه النفسى وبيئته الاجتماعية والظروف السياسية التى يعيش فيها . ومن الخطأ بل من الخطر أن يطلب المسلمون من غير المسلم أن يتعرض للإسلام من خلال فهمهم ومسلماتهم . فلو فعل ذلك لتحول إلى مسلم ، وعلى ذلك فهو لا ينظر للإسلام على أنه واقعة إلهية ، ولكنه ينظر إليه ضمن السياق التاريخى والاجتماعي .

النقطة الثانية التى أريد الكلام عنها هى أننى أتمنى كثيرا لو أن المسلمين تخلوا عن عقيدة الافتخار بالماضى وعقدة الاضطهاد فى الحاضر لأن هذا الافتخار الشديد يجرد الماضى من عناصره الواقعية والتاريخية ويجعله مجرد أشياء هلامية غير فعالة فى الحاضر وغير مؤثرة فى الإنسان . إضافة إلى أن إحساس المسلمين بالاضطهاد يمنعهم من التفاعل مع الحاضر ويخلق لديهم شعورا عدوانيا يزول معه تقبل الأشياء تقبلا حسنا ومناقشتها بهدوء .

وإذا كان چاك بيرك تكلم عن واقع المسلمين فنحن نشعر ونعرف أن الواقع غير مرض، سواء كان ذلك من بيرك أو من غيره فلا بد أن نتقبل الواقع الصحيح والأمور الحقيقية ونبحث عن الأسباب لكى نعالجها ، وإذا كان هناك خطأ ما فلا شك أن هذا الخطأ لا يوجد فى مصادر الإسلام بل يوجد بكل أسف فى المسلمين ، فالإسلام صيغة تاريخية فيه تفسيرات متعددة وحدث على مدى التاريخ أن تغلبت على الإسلام الصيغة السياسية نتيجة لأن الخلافة كانت وضعا سياسيا والمعارضة كانت تقوم على أسس سياسية ، وعلى هذا فإن هذه الصيغة لم تقدم الإسلام بالصورة الصحيحة ، وأصبح المسلمون فى وقتنا الحالى ثلاث فرق الأولى هى العوام وشبه العوام الذين لا يعلمون من أمر الدين إلا ما يمكن أن يكون شائعات أو أساطير اجتماعية وقصصا سياسية مختلطة بالدين ، وهذه كلها موروثات تحتاج إلى تصفية شديدة ، والثانية تمثلها جماعات الإسلام

السياسى ، وأقصد بها الجماعات التى تجعل من العمل السياسى محورها الأساسى وتجعل من الوصول للحكم هدفا رئيسيا وتختزل الإسلام كله فى عمل حزبى بحيث يعتبر هذا الحزب هو حزب الله والخارج عليه يعتبر من الكافرين ، ولا يكون هذا العمل دينيا إلا إذا تولوا هم أنفسهم السلطة ، هذه الجماعات ظهرت واستمرت وأصبحت هى الصيغة التى انتشرت فى العالم العربى لظروف متعددة ، منها ما حدث فى فترة عبد الناصر ومنها تشجيع بعض البلاد العربية لهذه الاتجاهات وأيضا تشجيع بعض أجهزت المخابرات الأجنبية لهذه الاتجاهات أيضا لضرب القومية العربية . ولظروف أخرى صدرت للخارج فأصبحت صيغة الإسلام السياسى هى الصيغة المطروحة عالميا وهى الصيغة الواضحة والظاهرة للإسلام التى لا تطلب إلا الحكم أوالمال لكى تصل به إلى الحكم والتى غلب عليها العنف نتيجة أقوال من التراث. وشعارات بدون برامج ، ومحاربة كل فكر مستنير وتهديده ماديا وأدبيا مما أوجد توترا مستمرا مع الحكومات وصراعات مع المجتمعات وبذلك أصبحت هذه الصيغة مرفوضة فى العالم لأنها مرفوضة من بعض المسلمين ولعلها الصيغة التى يراها " جاك بيرك " فى الإسلام ، أما الجماعة الأخيرة فهى جماعة الإسلام المستنير التى تعمل بهدوء لأنها تؤمن بأن الفكر يجب ألا يكون صاخبا وهذه الجماعة اضطرت لأن تناقش أفكار الإسلام السياسى لتصل إلى صيغة إسلامية مستنيرة بمعنى أن تنير العقلية الإسلامية المشربة بالضلالات والأوهام والأساطير والأفكار غير الصحيحة بل البعيدة عن الإسلام فأثبتت أن المقصود بتطبيق الشريعة هو تطبيق الفقه وليس أحكام القرآن وأثبتت أن الخلافة الإسلامية ليست هى الإسلام وأن الجهاد لا يعنى رفع السيف على المسلم أوغير المسلم كما أنه ليس الفريضة الغائبة كما يدعون إذ أن ذلك يعنى إدخاله على الفرائض الخمسة التى هى أركان الإسلام ولقد أوضحنا أن الحكومة فى الإسلام مدنية بمعنى أن الحكام ليست لهم حقوق دينية وما يصدر عنهم من أعمال يجوز نقضها والاعتراض عليها كما أنها عنيت بتجديد الفقه الإسلامي والفكر السياسى الإسلامي وتأكيدا لهذا فإذا لم يكن الإسلام قد استطاع أن يرفع من شأن المسلمين فلابد من خطأ فى الصيغة الإسلامية المطروحة التى

هى صيغة الإسلام السياسى أو صيغة الإسلام العوام .

إننا نريد أن نرجع لأصول الإسلام الذى نهض بالمسلمين ذات يوم عن طريق وضع مناهج وتعريفات للألفاظ ومنهج لتفسير القرآن نريد أن نحسم تساؤلات مؤداها : هل القرآن واقعة أزلية أم اجتماعية فالذين يقولون إن القرآن كان مرتبطا بالمجتمع وكان يغيره هم أنفسهم الذين يقولون إن القرآن صيغة أزلية بمعنى أنها بعيدة عن الواقع ، وإذا كان القرآن قد اتصل بالواقع وكان صيغة اجتماعية تقدم بها المسلمون لأنهم جعلوا من آياته ومفاهيمه سببا لتغيير ما بهم ومنهجا يسيرون عليه فبعد فترة من الزمن تغيرت النظرة للقرآن وأصبح ينظر إليه لا باعتباره فاعلا اجتماعيا ولكن باعتباره شيئا معزولا عن الواقع ونتيجة ذلك قالوا إن العبرة بعموم الألفاظ وليس بخصوص الأسباب وإن كنت أومن بعكس ذلك لأنك لو قرأت القرآن على الألفاظ ستصل إلى تناقضات شديدة ـ وأقول إنه منذ شاعت هذه النظرة خرج القرآن من النطاق الاجتماعي وأصبح ظاهرة عقلية وإيمانية وبدأ حال المسلمين يتدهور بهذه الصيغة التى ظهرت فى التاريخ الإسلامي فى صور متعددة والإسلام السياسى فى هذا يريد لشعاراته أن تكون بديلة للقرآن فى وقت سقطت فيه هذه الشعارات والمسألة التى تثار حاليا هى : تاريخية القرآن أم أزليته هل تستخدم ألفاظه وفقا لمعنى اللفظ وقت التنزيل أم معناه الآن ؟ إنه لابد من قاعدة نستفيد بها وتكون دافعة للمسلمين نحو التقدم وحتى لا يظلوا مذبذبين بين فكرة الأزلية والتاريخية.

وليسمح لى چاك بيرك أن أصححه فيما يقوله من انفصال بين العقيدة ومسيرة العالم الآن أو انفصال الواقع الإسلامي عن الواقع العالمى وأنا أعلم يقينا أن چاك بيرك عندما يتكلم عن الإسلام فهو لا يتكلم عن الإسلام المعتقد وإنما عن الإسلام التاريخى أو الصيغة المطروحة حاليا عن الإسلام ، وحالة الانفصال هذه تأتى من أن المسلمين الآن يستعملون كل نتاج الحضارة دون مشاركة وهم فى ذات الوقت يرفضون هذه الحضارة بعد أن يقبلوا نتائجها !! إنهم يقبلون الاستهلاك ويرفضون المساهمة فى الإنتاج لماذا ؟؟ لأنهم يرفضون المنهج العقلى واعتقادي أن القرآن والسنة الصحيحة يؤيدان العقل .

والعقل يؤيدهما ، وعلى ذلك فالعقل الإسلامي أولى به الآن من أى وقت مضى أن يكون بعيدا عن الخرافة ، فبدون المنهج العقلى والأخذ بأسباب الحضارة لا يمكن لأحد أن يصل وأعتقد أن الذى أوصل العقل الإسلامي لمرحلته الحالية أن هناك تيارا استشراقيا أدخل فى عقلية عوام المسلمين وجماعات الإسلام السياسى أن " الشرق شرق والغرب غرب " وأن الأخذ بالعلم والمنهج مضاد للإسلام !! مما يؤكد أننا لم نفهم عقيدتنا وكتابنا بالمعنى الحقيقى لأن الذين وضعوا القرآن فى النطاق الاجتماعي والاقتصادي كقوة للتغيير هم الذين تقدموا ...

ربما كانت هذه التفرقة جائزة لأن الإسلام عند جاك بيرك هو الصيغة التاريخية المطروحة كما أنه لا يلزم أن يكون المسلمون على مدى تاريخهم انعكاسا صحيحا للقرآن بدليل الانحراف عن الخط القرآنى الذى يتفاوت بين جماعة وأخرى إضافة إلى أن الإسلام التاريخى ليس هو القرآن بالضرورة إنما هو تفسيرات وتطبيقات للقرآن صحت فى بعض الأحيان وأخطأت فى كثير منها حتى أن المسلمين كثيرا ما انحرفوا بالفهم القرآنى . والفتنة الكبرى تمثل الإسلام التاريخى بعينه .

وجاك بيرك يقصد هذا وأعتقد أنه يرى أن القرآن يدفع إلى العقل والعلم وحين تضرب العقل ولا تطبق القرآن فأنت مسلم تاريخى ، والرأى عندى أن القرآن قادر على التطوير حين يضعه المسلمون فى القلوب لا فى المسجد كشعائر مفرغة من أثرها . ودعوانا أن يكون القرآن قوة عقلية وأخلاقية وعندئذ يتغير واقع المسلمين انطلاقا من أن الإسلام فيه الأساس العالمى الذى هو مبادئه ومنهجه الحركى المتجدد والعقلية الإسلامية عقلية عالميةرائدة . القلب فيها ممتلئ بالمبادئ فالعقل يسير والقلب يحكم ، وبهذا يصبح المسلم عالميا وأملا لكل إنسان يتمنى يصل إليه ...

إنها لضرورة أن يغير المسلمون مسارهم لأن الاندثار يهددهم سياسيا واجتماعيا وذلك لاستمرار عقلية الخرافة التى تقول إن الله سخر لنا الغرب لكى يعمل ونتفرغ نحن للعبادة !! وفى رأيى أنه لا توجد مقولة محبطة وهادمة للإسلام أكثر من هذه المقولة وغيرها مما يستلزم أن ندخل حركة تنوير إسلامي تعيد للإسلام قوته ومجده ويكون العلم

فيها إنسانيا فى أهدافه وإلهيا فى اتجاهاته حتى تتوحد الإنسانية تحت مظلة واحدة ، الله هو الحكم الأعلى والإنسان هو المحور ...

قضية ترجمة القرآن ليست حديثة العهد لكنها مرتبطة بجذور الاستشراق ، كما كانت هناك اهتمامات بالقرآن وبحياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذه القضية على وجه التحديد لى فيها رأى طرحته على مستويات متعددة وهو أن القرآن لا يترجم حرفيا وإنما تترجم معانيه ولقد صادف هذا الرأى أصداء طيبة لدى المؤسسات الإسلامية ، ذلك أن القرآن الكريم له مضامين كبرى وليست عملية يقوم بها مترجم " كچاك بيرك " فيواجه كلمة بكلمة وجملة بجملة ، فهذا كله غير مطروح لأن الترجمة ستصبح قائمة على شكلية الألفاظ ، أما ترجمة المعانى فإنها تطرح تساؤلا حول من يقوم بها ؟؟ ابن القرآن المنتمى للإسلام أو المستشرق الذى يقوم بعملية تحوير ولوى عنق للمعانى ؟؟ إنه قد آن الأوان لطرح مثل هذه المسائل بموضوعية على مستوى المؤسسات التى لديها غيرة وحرص على مضامين ومعانى القرآن الخالد وحى لا تصبح ذات طابع شخصانى بما تحمله من تناقضات ... وبالنسبة لچاك بيرك فى مواقفه السياسية كمفكر متعاطف مع العرب فى العديد من القضايا العربية السياسية وكأحد أعلام الاستشراق فمرحبا، أما "چاك بيرك" وتأهيله وتمكنه من اللغة العربية وفقهها فلا ... لأنه لا يعدو كونه مؤرخا اجتماعيا وأقولها بكل الموضوعية لأن ما أقدم عليه من ترجمة تتطلب قدرة رفيعة بل قدرة استثنائية انطلاقا من أنها تمثل أخطر القضايا فى الفكر الإسلامي . وبالتالى فهى ليست من البساطة والسطحية . حتى يتقدم بيرك ويعرفنا ما هو القرآن ؟؟ وكثير غيره جازفوا هذه المجازفة وليس هو أولهم بدليل وجود قائمة طويلة من الترجمات الفرنسية والإنجليزية والألمانية والحقيقة أن هناك استحالة لأن يعيش المسلم بمعزل عن التواصل الحضارى ، فلا يقرأ ولا يقرؤه أحد ، لكن هذا يدعو للتساؤل : أين موقع المؤسسات الإسلامية التى لديها إمكانيات مادية أو قدرات فكرية ؟؟ إنها لابد أن تتحرك ويكون هناك استيعاب لكل ما هو موجود من ترجمات على ساحة اللغات الحية فى إطار حدود ومقاييس هادئة ورزينة لأن للقرآن هيبته وجلالته ووقاره فى قلوب المسلمين .

و رغم تجربتى العلمية كمتخصص فى النظريات وفى الحضارة الغربية فإننى كثيرا ما أقرأ آية قرآنية وكأننى أكتشف ما فيها لأول مرة ، وأكتشف أن هناك تحديا دائما ، فالآية يقرؤها البسيط فيشعر أنه قريب منها وأنها دخلت قلبه واغرورقت عيناه بالدمع حبا وإجلالا لمن أوحى ولمن أوحى إليه . ثم يقرؤها العالم الذى فى قمة الجبروت فيقشعر لها بدنه . ويرتعد ويجد فيها تحديا بعد خمسة عشر قرنا ، وكأنه أمام نوع معجز من المعرفة ، لا علاقة له بمعرفة البشر السائدة فى نهاية القرن العشرين وهذا ليس بالشىء الغريب ، فالإسلام الخالد استطاع أن يحتوى المد الفلسفى الإغريقي وأن يستقطبه ويتجاوزه وانتهت المسألة إلى أن الإسلام ـ أو القرآن ـ أضاف لإعجازه البيانى إعجازه الفلسفى والعقلانى ثم جاء العصر الحديث مع العلم والتحدى دائما وهذا يمثل إعجازا قمة فى عصر العقل المتفجر بطاقاته ومناهجه وبرامجه وحساباته .

الإسلام لا خوف عليه ، وهذه كلها شطحات لا ينبغى أن نعطيها أكثر مما تستحق وليس بدعة أن نجد إنسانا يريد أن يشتهر ويتجاوز زملاءه بعمل فنى مبدع ويضيع وقته فى تساؤلات تجريدية تبعده كل البعد عن الشعور بعمق النص القرآنى أو الاقتراب من روحه ، فلا أتصور أن هناك عالما يحترم نفسه يحكم على الإسلام والقرآن مجازفة وهو يجهل لغة القرآن جهلا عميقا، والكثير من فلاسفة الغرب ممن تبنوا الكفر عقيدة يخضعون لمثل هذه الهرطقة ، وأقربهم "جان بول سارتر " حين قال لى أنا أيقنت اليوم أن " الإله قد مات " قلت : إذا كان قد مات فأين قبره؟ قال قبره فى عقلى ! قلت : هذا إلهك الذى مات ، ثم بدأ يقول الأنبياء لا وجود لهم ، فقلت: خير من يؤخذ منهم حيثيات النبوءة هم من عاشوا عصر النبوءة . وليس إنسانا يعيش فى نهاية القرن العشرين جالسا فى صالون بإحدى عواصم أوروبا !؟

وهناك من عاشوا التجربة وكفروا بها ثم جعلهم النور الإلهى يرتدون عن كفرهم ويعودون إلى الإسلام . وما أكثر هؤلاء " السارتريين " فى عصر الرسول !! لذلك فأنا أفضل العالم الهادئ الذى يقرأ ويعلق . فإذا أراد أن يواجه الإسلام فلا أقل من أن يكلف نفسه مشقة عشر سنوات حتى يهضم هذه الحضارة ولغاتها .. فأنا لكى أحكم

على الحضارة الغربية أضعت ربع قرن من عمرى حتى أكون بعيدا عن كل ما هو عفوى وانطباعى .

وليست كلماتى هذه ضد مبدأ الترجمة لأن هناك ترجمات عديدة ، نتج عنها إسلام الكثير من البشر ، ولكننى أفضل المترجم المؤمن المسلم ، وربما يكون هذا الحديث فرصة تلفت النظر لقضية هامة هى ترجمة معانى القرآن وقضية التواصل الحضارى على مستوى العقيدة الإسلامية فى حضور العقل والعصر والتأهيل . وليس على مستوى الأهواء الشخصية والأفكار وبعض أمور الاجتهاد الفردى ، لذلك ما زلت أوصى بأهمية وجود هيئة كبرى على مستوى العالم الإسلامي تشرف على ترجمة معانى القرآن بنوع من الصبر ولو اقتضى هذا بضع سنوات حتى تصبح هى المرجع الأساسى خاصة أن الإسلام بدأ يشق طريقة إلى عقول كبار المفكرين فى العالم كما أخذ يشق طريقة إلى قلوب البسطاء فى القارة الإفريقية والآسيوية ـ والإسلام يتحرك بقوة الله لذلك فمن الصعب القول بأن مسلمى نهاية القرن العشرين قد رفعوا شأن الإسلام بل عليهم أن يلتحموا بالإسلام حتى يرفع شأنهم .

الفصل السابع

الحضارة فريضة إسلامية

" **جاك بيرك** " كأحد المفكرين المعاصرين لا يستطيع أن ينفصل عن الإطار الذى صاغ فكره وتمثله معطيات العصر الذى نعيش فيه بما فيها من مقاييس مادية وتصورات محكومة بقوانين المادة وهو كمفكر متأثر تماما بمناهج الفلاسفة . وله فى الواقع تصور يتفق مع تصور "أوجيست كونت " فى تقسيم العصور حيث كان " كونت " يرى أن الإنسان انتقل من عصر الأسطورة إلى عصر الدين إلى عصر العلم أو الوضيعة وهذا التقسيم يسيطر على فكر الفلاسفة الأوربيين بصفة عامة لأنهم لا يتصورون الإسلام إلا فى ضوء معرفتهم بوضع الدين فى مجتمعهم وهذا الوضع يقترن بفكرة الأسطورة . لأن الدين كان دائما فى تخيل الأوربيين عدوا للعلم والموضوعية لأنه لم يكن فى حياتهم إلا محققا لنزوات الكهنة وعلى ذلك فهم يسقطون من فكرهم ومن حساباتهم الطابع الأساسى للدين الإسلامى الذى هو فى حقيقته دعوة للموضوعية وللعلم وقد انتقل الإسلام فعلا بالبشرية من عصور الكهانة وعصر الرجل الدينى إلى عصر الموضوعية واستخدام العقل ولا أقول العقلانية لأنها كلمة ينحصر معناها فى استخدام العقل دون غيره فى الحكم على ظواهر الأشياء لأن الإنسان لا يستطيع أن ينتقل بالحكم على الأشياء بدون معونة من الدين أو من مصدر أعلى يرشده ويهديه وعبثا نحاول إفهام الأوربيين أن الإسلام مختلف عن الأديان الأخرى بأنه مصحح لمسيرتها ومعدل لمفاهيمها وبأنه دعوة إلى العقل الذى يستلهم من الوحى مبادئه ومناهجه ولكنهم لا يريدون أبدا أن يتخلوا عما استقر عليه الأوروبى وهو أن الإسلام دين كسائر الأديان يمثل كهنوتا أو

مرحلة قد انتهت كما يقول " كونت" وكما يزعم "چاك بيرك " من أن الإسلام لم يعد يستطيع أن يوفق بين مناهجه وبين واقع الإنسان . ولاشك أن بيرك هنا مخلص لمبادئه الفلسفية المادية وخلفياته الماركسية التى يستحى من إعلانها .

هذا من الناحية العامة أما مسألة الانفصال بين العقيدة ومسيرة العالم فهو فى ذلك يخلط بين ما يتصل بحقيقة الإسلام كدين ومنهاج وبين واقع المسلمين الذى يتصف بالعجز عن مواكبة العصر الذى يعيشونه الآن . وهم فى هذا العجز متخلون عن الإسلام ولا علاقة لهم به وإنما هم يضطربون بين مناهج مختلفة ، فليست لهم الوحدة الإسلامية المبنية على وحدة الأمة ووحدة الشريعة ، وليست لهم مدرسة فكرية واحدة ينطلقون منها بل هم أمم شتى ومناهج شتى ولا يمكن أن يحسب هؤلاء من الناحية الاجتماعية والفكرية على الإسلام لأنه صيغة يمكن أن توحد أمة كما وحدتها من قبل وليست صيغة مثالية كما يقال ، لا يمكن نيلها لأن الحقيقة تؤكد أنها صيغة واقعية ثبتت واقعيتها فيما شهده العالم من حضارة إسلامية شامخة أسسها أولئك الذين آمنوا بهذا الدين واتحدوا تحت لوائه وتبينوا منهجه .

أما الآن فالمسلمون يفكرون بكل منهج إلا أن يفكروا بالإسلام ويفضلون أى توجه إلا أن يتوجهوا إلى الإسلام وهذا هو سر تمزقهم فلو آمنوا بعقيدتهم لتوحدوا لكن نحن أمة يفرقها دين واحد وتمزقها لغة واحدة !! والأوربيون تجمعهم أديان وعقائد وتوجهات شتى ولغات عديدة وانتماءات مختلفة لكن الواقع الحضارى يفرض عليهم أن يتوحدوا ليحققوا ما يأملون ويستعيدوا صولجان السيطرة على العالم بوحدتهم ، وكل ذلك يرجع للوعى بحقائق العصر .. أما نحن فهناك مخدرات فكرية طاغية على درجة الوعى تجعل المسلمين ينزعون إلى الأوضاع القبلية ويرفضون أية صيغة حضارية توحدهم وتخرجهم من الجاهلية المعاصرة التى تعوق المسيرة الحضارية للعالم الإسلامى مع أن كل المتغيرات الحديثة تدفعنا إلى الإسلام دفعا لكنا نرفض أن نضع أيدينا مع الإسلام أو أن نسير فى طريقه وعلى هذا سيظل " چاك بيرك " وأمثاله ينددون بالإسلام وإن كانت الحقيقة أنهم ينددون بالمسلمين وبواقعهم المعاصر !!

رغم أن تشخيص بيرك للعالم الإسلامى وواقعه فيه مغالطة كبرى ورغم تعرض هذا العالم لأحداث فوق طاقته بما يفرض عليه أن يعدل سلوكه ومسيرته إلا أننى أعتقد أنه عالم يستعصى على التعديل ومن هنا أتخيل أن تأخذ الشعوب بزمام المبادرة نحو منهج لتربية الفرد المسلم يعدل المسيرة ويوحد الشعوب الإسلامية ذات الولاء والالتزام بالإسلام . ومن هنا فالمنظمات الشعبية فى العالم الإسلامى بأسره مدعوة لبذل الجهود من أجل جيل جديد له متطلبات جديدة وله استجابات أفضل من الأفكار والمعطيات مما يستوجب وجود مشروع حضارى يعصمنا مما تموج به الساحة من إشكاليات لا مكان لها فى هذا العالم ولا علاقة لها بالحياة .

فى مثل هذا الجو يحق " لجاك بيرك " أن يتصور أن الإسلام عاجز لأنه لم يستطع أن يبعث هؤلاء المسلمين لمشروع حضارى ، وعلى ذلك فإذا كان الإسلام بعيدا عن أن يحرك أهله فكيف يمكن أن يحرك غيرهم ؟؟! ومن هنا تأتى رؤية " بيرك " بأن الإسلام غير صالح للعصر الذى نعيشه وإن كنت أرى أن الإسلام دين له خاصية انتشارية فى كل لحظة إذ أنه فى أمريكا الآن ما يزيد على سبعة ملايين مسلم يملكون قدرة تأثيرية على مجريات الأمور فى المجتمع الأمريكى وعلى مقدرات السياسة العالمية بل ويستطيعون أن يبشروا بجيل جديد لأنه الحل الحقيقى لمشكلات الإنسان الأخلاقية والروحية التى تهيمن بأشكال كثيرة على الناحية المادية .

هناك ضرورة إلى التفرقة بين مجتمع مسلم يتكون من مجموعة أفراد مسلمين ومجتمع إسلامى ينتمى إلى العقيدة ويلتزم بها شرعا ومنهجا وينفى التناقض المتصور بين الإيمان الدينى ومسيرة العلم وسننه وقواعده . وهذا بلا شك يشدنا لمعرفة العلاقة بين الغرب والشرق والتى قد تأخذ أشكالا كثيرة منها صراع القوى الدينية التى تريد أن تهيمن على واقع الإسلام من خلال الاستشراق والتبشير أما الحقيقة فهى إرادة الغرب فى الهيمنة على الشرق بكل مقوماته اقتصاديا وحضاريا ويأتى الدين عقبة فى طريق هذه السيطرة فيقضى عليه ثم يأتى المتدينون كعقبة فيقضى عليهم أيضا بالتفرقة بينهم أو بتشويه أفكارهم لكن المهم هو الصراع على القيادة الحضارية .. ولمن تكون ؟

إنه ضمن المجالات التى تخاذلنا فى إنجازها على وجهها الأكمل هى ترجمات القرآن كعمل ثقافى وحضارى لو تم من خلال رؤية ثقافية إسلامية . لكنا تركناها للغرب فأصبحت له أعمال خيانية لا تؤدى رسالة حضارية . إضافة إلى هذا فالقرآن لم يترجم إلى أكثر من ٤٠ لغة بينما الكتاب المقدس ترجم إلى أكثر من أربعمائة لغة . وهذا هو الفرق بين أوساط ثقافية نشيطة تعمل على نشر رسالتها وأفكارها فى العالم وبين الخاملين من المسلمين الذين ما زالوا يتناقشون حول جواز الترجمة ويغرقوننا فى متاهات تبعدنا عن الحقيقة التى قالها القرآن الكريم ذاته (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) حبذا لو ترجم القرآن إلى ألف لغة موجودة فى العالم الآن .

إن فكرة الديانات الإبراهيمية هى فكرة أوروبية قال بها " جاك بيرك " وقال بها من قبله "روچيه جارودى " وهى فكرة تريد أن تدمج الإسلام بالمسيحية واليهودية فى تصور لوحدة هذه الأديان تتلاشى فيها الخلافات وتتحرك فيها الجهود فى مكان واحد بحيث ينوب فى النصرانية واليهودية ونحن نرى أن هذه الفكرة هى فكرة مفضوحة لأنها تطالب الإسلام بالنوبان فى غيره من الأديان . وأعتقد أن الاستمرار فى المسيرة سيكون للإسلام وحده وإن كان قد نسخ الأشياء السابقة من الناحية النظرية والتشريعية ... أما من ناحية الواقع فالأديان موجودة تتحارب وتتصارع بينما المطلوب أن تختفى هذه الظواهر المتنافرة من مسيرة المتدينين وليعلم أهل الأديان جميعهم أنهم يواجهون على الجانب الآخر معسكر الإلحاد الذى يحظى الآن بسقوط الماركيسية وإن كان ما زال قائما فى شكل كيانات شعبية تخضع لألوان من المجوسية والوثنية .

إمكانيات الإسلام لا يمكن أن تسفر عن حقيقتها إلا على أيدى جيل من المسلمين يحملها إلى العالم ويحقق التواجد الحقيقى للشخصية الإسلامية على الساحة وهذه الشخصية لها وجود فردى يتمثل فى الدعاة للإسلام الذين يقدمون القدوة ويجسدون قيم الإسلام والمجتمع ووجود عام فى الجماهير وبصفة عامة ليس من السهل القول بأن الأرض ممهدة للإسلام فى بلاد الإسلام فما زالت هناك عقبات ضخمة يمثلها وجود من يجدون قوتهم وحياتهم فى محاربة الإسلام أو فى الاتجار ببرامج ومناهج وثقافات غير

إسلامية وهنا يبرز محور الجهاد الحقيقى الذى يخوضه الدعاة .

إن الإسلام على الصورة الفردية موجود وهناك من يمثلون فيه القدوة ولكن هذا النموذج لا يجد القدرة على الانتشار نتيجة الصراع الفكرى داخل المجتمع ونتيجة تجريد الدعوة الإسلامية من الوسائل الحاسمة لصد هذا الصراع لذلك وحتى الآن لم تصل لشخصية إسلامية مستنيرة بصورة جماعية . إن چاك بيرك عدو للإسلام وما وجدت عدوا للإسلام لقى تكريما كما لقى هو داخل العالم الإسلامى فلقد استضيف فى كل جامعة ونسب للمجمع اللغوى ورغم ذلك نرى أنه مغرم بتدمير هذا العالم !! لأنه كغيره مرعوب من زحف الإسلام على الغرب ولسوف ينتهى يوما ويسدل الستار على مفكر دجال ليس الأول وليس الأخير فالذى يزيف فى ترجمة القرآن ويعتمد على التحريف هو خائن لأمانة الترجمة وفى اللغة الفرنسية يقولون المترجم خائن فإذا خان چاك بيرك فى ترجمته فيمكن أن نترجم المثل الفرنسى إلى جملة أخرى چاك بيرك خائن كمفكر وكمترجم .

على ما يبدو من المقولة التى يطرحها " چاك بيرك " أن هذا تشخيص صحيح لكن ليس القرآن أو تعاليم الإسلام سببا فى ذلك وإنما السبب الحقيقى هو قصور الاجتهاد أو اجتهاد القاصرين أو المقصرين وما تحمله مقولة " بيرك " من أن هناك تناقضا بين مفاهيم العقيدة والواقع القائم إنما يرجع إلى ما يتم تقديمه من فهم للإسلام تجمد عند فقه القرن الثالث أو الرابع الهجرى وإذا كان الإسلام لم يشهد هذا التناقض فى عصور تألق الحضارة الإسلامية فإنه يشهده الآن بعنف نتيجة عدم اجتهاد العقل فى المواءمة بين الإسلام والعصر فالإسلام واحد لكن فهمه وتفسيره يختلف من عصر إلى عصر . ومن ذلك لابد من اتساع الفهم بين القاعدة والواقع المتغير وفى اعتقادى أن الإشكالية تأتى من علماء المسلمين الذين ينقلون اجتهاد وفقه أحد العصور ويحاولون المواءمة بينه وبين واقع العصر ومن هنا تحدث تصادمات كثيرة نتيجة رفض أى بدائل مطروحة تتسق مع الشريعة فى القصد وتختلف معها فى الأسلوب أو الوسيلة وليس القرآن فى ذلك محل شك أو اتهام لكن النقل عنه والفهم له محل نقد شديد ... يحدث هذا ونحن نعيش ونتسق

مع حضارة عالمية لها قواعدها ولا نستطيع الانفصال عنها ومن قواعد هذه الحضارة التعامل مع الدين كقضية خاصة والحياة كقضايا عامة وفى هذا المجال هناك بعض الفقهاء اجتهدوا فى ذلك اجتهادات واسعه مثل الطوفى الحنبلى فى مقولته (إذا تعارضت المصلحة مع النص فضلت المصلحة لأنها المقصد الأساسى للنص) .

وبصفة عامة الإسلام دين والمسلمون بشر والبشر خطاءون بطبيعتهم وكل ما حدث على مسار التاريخ الإسلامى كان أخطاء مسلمين وليس شيئا ينسب إلى العقيدة أو إلى القرآن ذاته . لكن هل يعتبر هذا إدانة للإسلام أو إهانة للقرآن ؟؟ (لا) ... لذلك يجب علينا أن نفصل بين العقيدة وبين واقع من يؤمنون بهذه العقيدة فالمسلمون ليسوا متخلفين بسبب القرآن واليابانيون ليسوا متقدمين بسبب البوذية وإسرائيل لم تنتصر على مصر فى ٦٧ بسبب عظمة الدين اليهودى ولا انهزمنا نحن بسبب أخطاء تتعلق بالدين الإسلامى .

إن هناك اعتقادا لدى المسلمين بالاضطهاد من علماء الغرب إلا أن هؤلاء العلماء لا يضطهدون عقائد الشرق بل إن فلاسفة الغرب بصورة عامة يضطهدون العقائد على إطلاقها وإذا تصادف وجود " چاك بيرك " الذى يرى رأيا نقديا فى القرآن فكذلك هناك عشرات المفكرين الذين لهم آراء نقدية فى التوراة والإنجيل ووصلوا إلى درجة إنكار هذه العقائد إذن المسألة خاصة بالشرق وليست موجهة من الغرب فى ظل مناخ الحرية الفكرية . والغرب ليست له عقائده لأنها كلها عقائد شرقية مختلفة والفرق أن هذا يحدث فى بلدنا بصورة تعصبية ويحدث عندهم بصورة فيها شىء من المنهجية فعندهم الميثولوچية أو دراسات الأديان وهذه ليست موجودة فى عالمنا الشرقى كله .

وما هو موجود سواء فى الجانب الإسلامى أو المسيحى ليس إلا دراسات مقارنة الأديان داخل المؤسسات العلمية الدينية .

إن الإسلام وتاريخه ـ يزخران بالكثير الذى يجب أن يستلهمه المسلمون فى وقتنا دفعا للإسلام ودفعا لأنفسنا كأن يتجسد لدينا درس إسلامى عظيم هو درس غزوة أحد ففى هذه الغزوة كانت عناصر الإيمان متوافرة وكذلك كل عناصر النصر بمعنى إذا

تحدثنا عن عظمة القيادة فقد كان الرسول هو القائد والمجاهدون هم كبار الصحابة . ورغم ذلك كانت محصلة الغزوة أسوأ هزيمة فى تاريخ الغزوات !! والسؤال الآن لماذا انهزم المسلمون رغم توافر عوامل النصر !! التاريخ ينقل لنا أن السبب يرجع إلى الخطأ فى فن الحرب ذاتها فاستحقوا الهزيمة والدرس العظيم هنا أنك لكى تنتصر لابد أن تأخذ بعلوم الحرب وأساليبها أى ضرورة الأخذ بالأسباب كسبيل للنجاح وما أحوجنا إلى مثل هذا الدرس العظيم فى عالمنا المعاصر فعصور النهضة الإسلامية أيضا مثلت ذلك الدرس وأقربها العصر العباسى حيث أخذ المسلمون بالأسباب فترجموا وظهرت المدارس الفكرية والفلسفية وبدأت الحضارة الإسلامية فى التألق فى غضون سنوات قليلة فهل أخذنا نحن الآن بأسباب الحضارة ؟؟ لا شك أن الذى يحدث فى عالمنا الإسلامى شىء مختلف تماما لأننا أخذنا بأسباب التخلف واعتبرنا الصغائر إشكاليات كبرى وعجزنا حتى عن ترجمة ديننا وشرحه بشكل صحيح والتقدم بصورة عامة يعنى أيضا التقدم فى الفكر الدينى وكما قلت عن العصر العباسى أنه عصر ازدهار الحضارة الإسلامية والفكر الدينى ويكفى أن نشير إلى ظهور المذاهب الأربعة فيه وأيضا كل كتاب السنة من البخارى ومسلم وأبو داود والترمزى والنسائى وابن ماجة وهو نفس العصر الذى شهد تألق الفن واللغة .

علينا أن نسأل أنفسنا لماذا الشرق شرق والغرب غرب أعتقد أن هناك ما يمكن أن يسمى بمنهج التفكير الشرقى الذى يبدأ بالقضية الكلية فإذا أثبتها لم يعد مجال بعد ذلك للخوض فى الجزيئات بينما منهج التفكير الغربى يبدأ من الجزء إلى الكل فتصبح هناك فرصة لدراسة الأجزاء والتحقق من الكليات وإذا كان هذا خلافا مطروحا بين الشرق والغرب فى الطبيعة فهذا لا يمنع التواصل الذى ربما يؤدى إلى اختلاف الشكل الحضارى وليس اختلافا فى جوهر الحضارة وطبيعتها .

إن مقارنة إمكانيات الإسلام بإمكانيات كتابه هى مقولة غريبة من چاك بيرك فلا يوجد فصل بين الإسلام وكتابه بينما توجد ضرورة للموائمة ليس على حساب الدين وليس على حساب العصر ولكن لصالح الدين والعصر . وأعتقد أنه لابد أن ينتصر العقل

وتنتصر نبرة الاجتهاد بالعودة إلى المناهج الأصلية للإسلام بما يعيد له مجده الروحى .

إن ما أثاره چاك بيرك حول انفصال العقيدة الإسلامية ليس جديدا ولكنه استمرار لهجوم المدرسة الاستشراقية الفرنسية على الإسلام منذ مطلع العصر الحديث واتهاماتها التى فات أوانها وفقدت صلاحيتها " فلم " تنفصل العقيدة عن الكمالات الأخلاقية التى تستمد حياتها من هذه العقيدة فنحن لم نهجر الإسلام وإن كنا قد اكتفينا بأصوله العامة وقصرنا فى تطبيق فروعه على مختلف مجالات الحياة أما كلام چاك بيرك فيما يتصل بهذه النقطة هو أثر لمسلمته الأولى التى بدأ بها حديثه عن ترتيب القرآن فالمشكل الأساسى إذن يتعلق بالخلاف المنهجى بيننا وبينه وأنه يضعنا أمام سؤال هل القرآن نص تاريخى أم نص من خارج التاريخ ؟؟ فالقول بأن القرآن نص تاريخى يعنى أنه نتج عن أوضاع وظروف تاريخية وبالتالى يمكن أن يؤول إلى التعديل والتغيير كما أن يؤول إلى الزوال بتغيير كل الظروف التى نشأ فيها ولو لم تكن الظروف الواقعية الدنيوية لما كان القرآن وهذه نقطة تختلف بلا شك عن الموقف الإيمانى والإسلامى الذى ننطلق منه عند النظر فى القرآن كنص منزل يأتينا من خارج التاريخ فهو لا يخضع فى أصل وجوده لوضع تاريخى معين .

وأنه إذا كان التاريخ أحد أطراف الدراسة فى أبحاثنا الاجتماعية وإذا كان بيرك أستاذاً للتاريخ الاجتماعي فهو ينطلق من هذه الزاوية بما يبعده عن النظرة الإيمانية وعلى ذلك فإن ما يثيره عن الهوة القائمة بين العقيدة ومسيرة العالم اليوم إنما يؤكد به أن العالم بأحداثه وظواهره ومتغيراته قد تجاوز النص الدينى فالمتغيرات ليست مقصورة على هذا العصر مما يجب أن يعطى للمسلمين قدرة غير عادية على التجديد فى فهم القرآن وأساليب تطبيق أحكامه على الواقع المتغير فلقد صار القرآن أساسا للتشريع بل وخرج من هذه البيئة وحكم مجتمعات ذات طبيعة مختلفة وعلى ذلك كان من الأولى أن يظهر هذا الانفصال خلال هذه الفترة ومنذ البداية، لكن إذا رجعنا إلى أسباب ضعف المسلمين الآن فإننا يجب أن نتساءل : هل يرجع هذا إلى أنهم متمسكون بالقرآن أم العكس ؟؟ إننى أتصور أن هذا الضعف يرجع للفصل بين علوم الدين والدنيا فعلى مدى

أربعة عشر قرنا كانت هذه العلوم مترابطة ومتصلة فمثلا كانت العلوم الاجتماعية جزءاً من العمل الفقهى وعلوم النفس كانت متصلة بالتصوف كما نجد أن أهم مناهج التاريخ وردت لنا من علم السنة وكذلك محاولات التجديد التى أورثتنا المجموعات الموسوعية الكبرى للمفكرين الإسلاميين وكذلك الأعمال التى اهتمت بتقعيد وتأصيل المناهج .

أما هذه الهوة التى يتحدث عنها بيرك فقد نشأت منذ القرن التاسع عشر عندما بدء الاحتكاك بالحضارة الأوروبية وفى هذه الفترة حدث الغزو الأوروبى المعروف فوجدنا أنفسنا فى قلب القرن التاسع عشر محاطين بالقوة الأوروبية شمالا وجنوبا وشرقا وغربا فأصبحت القوى غير متكافئة إطلاقا ومن ذلك بدأت نماذج الفكر الأوروبى تصل إلينا باستبدال الأطر المرجعية الإسلامية بأطر أخرى تتعلق بالنظريات الغربية والوضعية ومن هنا بدا الانفصال وأخذنا بالعلوم الحديثة منفصلة عن مجمل العقائد التى كانت سائدة فى مجتمعنا مما أضعف الفكر الدينى وأضعف قدرتنا من خلال الفكر التطبيقى الوضعى على أن نفهم أنفسنا جيدا ولذلك نتصور أن كل المؤثرات الغربية أجهضت الفكر الإسلامى وجعلته يتقهقر كما أنها أجهضت إمكانيات التجديد داخل هذا الفكر وليس معنى ذلك أن المسلمين غير ملومين بضعفهم ولكن ليس بالمعنى الذى يقصده بيرك فضعفنا لا يأتى من أن عقائدنا صارت بعيدة وغابرة ولا تساعدنا على فهم واقعنا وعلى مسايرة العصر الحديث بل إننا نستطيع أن نساير هذا العصر من خلال القيم الإسلامية نفسها وهذا ما يميزنا ويعطينا هويتنا الخاصة وقدرتنا على الإضافة للحضارة العالمية بشكل متميز وأصيل رغم معايشة عالمنا الإسلامى لأزمات مستحكمة أبرزها معايير الفكر الغربى الداخلة فى معاييرنا حتى صرنا مغتربين عن أنفسنا وعن واقعنا بل عن مكونات المجتمع العربى وصار الغرب هو المثل وهو المعيار وهذه هى المشكلة بينما الإسلام بنصه عقيدة عالمية والفكر الإسلامى فى طريق استجابته لأوضاع الواقع ومشكلاته من أجل إعادة ربط قيم الإسلام وأصوله بالنظرة إلى شئون الحياة ومعالجتها بل هو فى طريقه أيضا للبعد عن الفكر الغربى الذى لا ينظر إلى المراكز الفكرية المختلفة ولكنه ينظر إلى فكره وتجربته التاريخية والفكرية على أنها واقع ومستقبل العالم كله وهو

فى ذلك يتخلى عن النسبية التى هى مبدأ أساسى فى الحضارة الغربية .

كل مقولات " بيرك " بصفة عامة تجعلنى لا أقف أمامها بشكل أو بآخر فلقد تجاوزنا مرحلة ردود الأفعال والكتابات الدفاعية التى بدأت منذ القرن الماضى حينما صحا المسلمون على هجمات المستشرقين فلا أحد يختلف الآن على أن الاسلام كعقيدة لا تناقض بينها وبين مسيرة العالم الحالية وكذلك لا تناقض بينها وبين مسيرة العلم سواء الطبيعى أو الاجتماعي أو الإنساني ولا جدال فى أن المسلمين وتخلفهم نابع من بعدهم عن الإسلام وهناك مثل بسيط فى تفسير هذا السبب وإن كان الغالب هو أن الجمود فى فهم الإسلام هو الذى أدى إلى بعده عن استكمال مسيرة الحضارة التى يجب أن يتوجه المسلمون إليها بالعمل و بالتعامل مع القرآن فهما وتطبيقا والاتفاق على بناء فكرى إسلامى يعصمنا مما نعيش فيه من بعثرة فكرية تمثلها كتابات متناثرة لا يربطها خيط أو منظومة فكرية واحدة ثم تأصيل هذه المنظومة حتى نصل إلى إنتاج علوم إنسانية واجتماعية وإسلامية مستمدة من هذه الأصول وبدون التأثر بردود الأفعال من العلوم الاجتماعية المعاصرة ذلك بعد تطوير وتجديد العلوم الدينية فمثلا علم الكلام الذى هو فى نظر الكثيرين علم جدلى لابد أن يتغير مضمونه ليؤدى الرسالة التى أداها فيما مضى ولكن إزاء المشاكل والشبهات المعاصرة والمذاهب الاقتصادية والاجتماعية والفكرية التى تشكك فى العقيدة خاصة ؛ ونحن فى عصر أصبح العلم الطبيعى فيه يدعو للإيمان بعد أن كان يدعو للإلحاد لذلك يجب أن تستمر هذه الواجهة الجديدة لبناء العقيدة لأنه لم يعد هناك تنافر بين مكتشفات العلوم الطبيعية والكونية الجديدة وبين الإيمان بالله والغيب ومن ذلك يجب أن نقيم علم الكلام على هذا البناء .

إن الإسلام ليس متقوقعا داخل العالم الإسلامى كما يتصور " بيرك " لأن الصحوة الإسلامية تثبت عكس ذلك إذ أن المسلمين بعد أن كانوا مفتونين بالغرب وحضارته أصبحوا يشعرون بأن الإسلام هو الكفاية وهو المنطلق الطبيعى وهو الهوية الثقافية والحضارية ولذلك فإن الواقع الإسلامى مقبل الآن على تغير لأن المد الإسلامى فى تزايد يرعب الغرب بكافة دوائره السياسية والإعلامية والفكرية بالإضافة إلى أن الفكر

الإسلامى المعاصر بدأ طريقه الصحيح وهناك أكثر من محاولة لتأصيل هذا الفكر من الناحية المنهجية والفلسفية فى ظل جهود عملاقة تختصر الزمن لتحقيق المشروع الحضارى الإسلامى الذى يلتف حوله المسلمون بما يحقق التواجد الحقيقى للشخصية الإسلامية على الساحة .

إن واقع المسلمين اليوم أقل بكثير مما يدعو إليه كتابهم هذا ليس بجديد ولا يعد إنجازا لجاك بيرك لكن السؤال يجب أن يكون فى هذه الصيغة : هل مكونات المجتمع الإسلامى لا تتيح له أن يحقق أهداف الإسلام ؟؟

إن أهداف القرآن تحتاج إلى إمكانيات معينة كى تتحقق وهذه الإمكانيات إذا نظرنا إلى الواقع الحالى على أنه واقع جامد وثابت وعلى أننا سنستمر فى هذا الواقع الذى يرسم لنا فلا شك أننا سائرون فى خلاف الاتجاه الذى يريده منا القرآن وفى هذا تحقيق لأمنية بيرك بأن يظل المسلمون متخلفين عن الوصول إلى الإسلام ولكن إذا تحررت الإرادة الفردية والجماعية فمن الممكن أن ننطلق لنصل إلى إمكانيات القرآن الذى سيظل هو المثال ، والعبرة فى رأيى ليست بالوصول إلى تحقيق ذلك ١٠٠ ٪ وإنما فى التوجه إليه لإقامة مجتمع إسلامى نموذجى يكون خير دعاية للإسلام الذى هو نظام كامل للحياة فى جوانبها المختلفة وإن كان مفهومه ينحصر عندنا فى العقائد والعبادات فقط نتيجة لما تراكم فى تاريخنا ونتيجة للإلحاح من علماء الغرب ومستشرقيه على أن يكون هكذا وبالتالى فالمعنى الحضارى للدين غائب بينما المعنى المغلوط الضيق هو الذى أصبح المعنى الصحيح للدين !!

إن كل ذلك يؤكد أن هناك حرب مفاهيم وحرب مصطلحات لإفراغ المعانى من مكوناتها السليمة وإعطائها مضامين أخرى تتفق تماما مع ما يريده الآخرون لنا .. إننى لا أقول لجاك بيرك شيئا لأنه مخلص لمبادئه ويخدم حضارته بينما نحن مقصرون فى الدفاع وفى الفهم وفى العمل .

إن مقولة بيرك فى عمومها تحتاج منا كمسلمين إلى قدر كبير من التحليل فإذا كان الإسلام ينهض على أربعة محاور أساسية أولها العقيدة فلا زال العالم الإسلامى

متمسكا بعقيدته ولا زال أيضا يقيم عبادته على وجهها المراد لكن بالنسبة للأخلاق فلابد أن نعترف قبل غيرنا بقصور واقعنا عن تحقيق الأخلاق المثلى التى يريدها الإسلام وهذا راجع دون شك إلى عصور طويلة عاشها هذا العالم تحت ضغوط سياسية واجتماعية أفقدته بعض القيم الروحية والأخلاقية أيضا أما المحور الرابع وهو التشريع فقد شهد العالم الإسلامى تحولا واضحا حين استبدل تشريعاته الإسلامية بتشريعات غربية فى مجالات التعليم والقضاء والآن هناك محاولة للتخلص من هذه التشريعات والعودة للتشريع الإسلامى وإن كان الأمر ليس سهلا على الإطلاق.

إن العالم الإسلامى اليوم تسحقه مشكلات تعرقل مسيرته وهذه المشكلات سيمتد أثرها لفترة من الزمن لأنها عميقة ومستحكمة وليست طارئة عارضة وأبرزها مشكلة الفهم المنقوص للإسلام فزعم أن هذه المشكلة قديمة لدى المسلمين إلا أنها ما زالت تفرض نفسها بشدة علينا حيث يتصور البعض أن الإسلام أداء شكلى وحرفى للعبادات غير مهتم بمضمونها ولا بما تستدعيه من سلوك مع باقى أفراد المجتمع ذلك فضلا عن الجمود الواضح أمام التعامل الدينى والأخذ بظاهر الألفاظ دون الوقوف على معناها المراد ـ وإذا كان الفهم المنقوص للدين لم يظهر كمشكلة ضخمة فيما مضى فكيف نراه يظهر فى عصر أحوج ما تكون فيه للبعد عن طبيعة هذه المشكلات والنظر إلى غيرها كضرورة واجبة .

ومشكلة أخرى أسميها بالتعصب المغلق أسهم فى إبرازها تفتح عقول الأوائل على مذاهب العالم القديم واتجاهاته المختلفة لكن الآن تسرى بيننا روح التعصب والمغالاة وكأننا تأخرنا عن السابقين بآلاف السنين حيث كانوا أكثر منا تقدمية ثم يأتى التخلف الحضارى كمشكلة ثالثة يعانيها عالمنا الإسلامى ولقد ظهرت هذه المشكلة بوضوح فى مطلع القرن التاسع عشر حيث فوجىء المسلمون بأهل الغرب ينقضون عليهم بأسلحة جديدة ونظام عسكرى متطور وهنا أدرك المسلمون أن عصر السيف قد انتهى أمام عصر البارود وعلى هذا فسرعان ما استدركوا النقص إلا أنهم ما زالوا فى صراع مرير مع لحظة الاصطدام الحضارى التى تتجدد الآن كل يوم بل كل لحظة!! وقد أدت

مشكلة التخلف الحضارى طبقا للمنطق العقلى إلى التبعية التى تؤكد الفشل بمعناه الحقيقى بما تمثله من اعتماد متزايد على الغرب ولقد كانت فى بدايات القرن العشرين دعاوى للأخذ بالحضارة خيرها وشرها لكنا لم نأخذ منها إلا الشر وبذلك انبهمت الهوية الخاصة للعالم الإسلامى بكل مكوناته وتاريخه العريق ، ويبقى مسألة الأصالة والمعاصرة كمشكلة خاصة هذه المشكلة مطروحة طرحا خاطئا لأنها تتمثل ببساطة فى السؤال التالى كيف يعيش المسلم بعقيدته وتراثه الماضى فى عالم اليوم السريع الإيقاع والحركة ؟ لا شك أن الإجابة على هذا السؤال تتطلب فحصا عميقا للتراث ووقوفا على ما يتبعه المسلمون فى حاضرهم تحقيقا للمعادلة الصعبة التى تجمع الاثنين فى مركب ثقافى جديد .

ولا شك أيضا أن المقدمات الأربعة التى أشرنا إليها لا تُكون نسقا فكريا وتجريديا وإنما هى نظام من المبادئ والتعاليم القابلة للتحقيق والخضوع لواقع الناس .

الفصل الثامن

الإسلام فرصة البشرية للمستقبل

حين أتعرض بخواطرى للإسلام أقول : لماذا أنا سعيد لأنى ولدت مسلما ؟؟ ولم أقل " لأنى مسلم " . فنحن أولاد الأقدار وأولاد الصدف فأنا ولدت مسلما لأب مسلم وأم مسلمة . فنشأت مسلما فهل أستمر مسلما بهذا الدفع أم لا ؟؟ والآن بعد أن قرأت واطلعت على الدين الإسلامى وفهمته قدر الإمكان . وفهمت جوهر الإيمان أقول : " الحمد لله أننى ولدت مسلما لأن الإسلام جاء للإنسان بنظام يجد فيه سمو فكره . وهذا النظام يقوم على مبادىء أهمها وحدانية الله فمن يقرأ القرآن يجد أن الفهم الأول الملح الدائم الذى لا ينقطع هو الدعوة إلى الإيمان بهذه الوحدانية : آله واحد ولا تعدد فى الألوهية . وهذا فى ذاته يعنى أن الكون واحد . وقانون الكون واحد . وهذه النظرة لها علاقة كبيرة جدا بأن يكون ذهن الإنسان جليا صافيا واضحا يرى الكون على حقيقته . ليس هناك غموض فى رؤية الإنسان فوحدانية الله تبنى على أساسها كل العلوم التى تستند على أن القانون فى الكون واحد سواء فى حركة الأفلاك أو غير ذلك . وارتباط الأبحاث العلمية الحديثة بعضها ببعض يجعل هذه نقطة مهمة عند النظر إلى فكر الإنسان وتوضيحه و كشفه . فالقرآن فيه إصرار وإلحاح كأن الرسول غير مكلف إلا بمهمة واحدة هى أن يؤكد هذه الوحدانية ، وما عدا ذلك يرتفع إلى مقام الدعوة وبعد ذلك يفتح الباب أمام قوى الإنسان العقلية لتتفجر ولتنطلق من مكانها .

وحقيقة أن الدين اليهودى هو دين توحيد أيضا لكن مع الأسف الشديد ـ ولا أدرى لماذا ـ كان مع اعتراف اليهود بوحدانية الله أنهم قالوا إنه إلهنا وحدنا لا شأن لغيرنا به

. ولا شأن له بغيرنا إضافة إلى ذلك أنهم أباحوا لأنفسهم انتهاك جميع حقوق غير اليهود . حتى أنهم سمحوا بالسرقة فى سبيل الدين .. المسيحية هى أيضا تدعو للتوحيد وعلى ذلك فأنا أومن إيمانا صادقا ، بأن جميع الأديان واحدة أو هى طرق متعددة تؤدى إلى الله . وقد وصلنا مع الدين الإسلامى إلى أننا أنهينا هذه المسألة بالوصول إلى أقصى ما يستطيعه إنسان من تفسير لوجوده .

وفى القرآن الكريم لا يرد ذكر الصلاة إلا ألحقت فورا بكلمة زكاة مما يؤكد أنه ليس دين اعتقادات أو دين حساب وعقاب ، بل هو دين دنيوى وأخروى أقام مجتمعا من أعجب المجتمعات التى رأيناها . فهذا الدين يصلح علاقتك بالله ، وبأخيك الإنسان ، بمعنى أن المسألة ليست اعتقادية ، بل نظرة إنسانية تطرح سؤالا هو كيف يمكن ألا أومن بالإسلام والنقلة الذهنية المنطقية هى وصول فكر الإنسان إلى تصوره لوحدة البشر والأخوة بين الناس وقد قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) : " كلكم من آدم وآدم من تراب " . وقال أيضا " لا فرق بين عربى وأعجمى إلا بالتقوى " . وهذا يعنى أنه أزال الحدود بين الأجناس فلا تفرق بين البشر بسبب الجنس أو اللون أو المولد أو الانتماء لطبقة اجتماعية ، وقد كانت علة الأمم من قديم هى الكراهية بين الأجناس والتى دفعت فى كثير من الأحيان إلى حروب مدمرة ، وعلى هذا فدعوة الإسلام لأخوة البشر هى دعوة حضارية تزلزل نفسى ، دعوة فوق كل القوانين التى تتبدل . وهذه الدعوة تجعلنا أمام تطور غريب جدا فى التكوين البشرى ..

ومبدأ آخر فى الإسلام هو الترابط الاجتماعي ، فقد أنشىء بيت المال ليكون عائلا لمن لا عائل له . ووارثا لمن لا وارث له . أليس هذا هو المتبع فى جميع الأنظمة التى تفخر أوروبا الآن بأنها أنظمة اجتماعية ناجحة بينما نحن الذين بدأنا بهذه الأنظمة .

أنا فى غاية السعادة للمبادئ الإسلامية التى قلتها ، لأنى أشعر بأننى وسط فكر إنسانى متحضر رؤوف بالناس . ولكن أين المسلم الآن من هذا الدين ؟؟

إنه لواستيقظ الضمير فى نفوس مسلمى هذا العصر ، ونهضت عقولهم من كبوتها ، لشعر كل مسلم بالأسى والحزن ، وأدرك مدى الخطر الواقع على دينه .... لأننى لم أر

فى حقيقة الأمر قوما عبثوا بدينهم هذا العبث وتناحروا هذا التناحر وأساءوا التصرف بمثل ما حدث ... لم يضر أحد بالإسلام كما أضر المسلمون به .

وإننى لأشعر بصعوبة تحقيق الأمل فى أن ننهض من كبوتنا نهوضاً قريباً ، فالطريق طويل ومحفوف بالمخاطر . ولكن الله خلق الإنسان وخلق فيه العقل . وحسب العلم الحديث لا فرق بين عقل أنيشتين أو غيره من البشر ، وإن أحداً لم يطلب من الإسلام أن يكون علمانيا بل لابد للإسلام أن يطبق عقليا وعمليا لأنه دين ودولة . وما يحدث الآن فى العالم الغربى يتطلب أن يغلق العالم الإسلامى أبوابه ويحاول أن يطبق الشريعة الإسلامية فى عالم مقفل عليه ثم ينطلق . فنحن لا نرفض العقل الذى هو أساس الحضارات ، فكيف نرفضه وقد أعطيناه للعالم ؟؟

و إنى لأتخذ لحياتى شعارا هو " قم بواجبك " ففى داخلنا صوت غريب جدا يجمع بين صوتين هما : " روح ونفس " . الروح فى العلاقة مع الله ، والنفس هى الضمير ومن الضرورى . أن تنصت لهذين الصوتين وإذا لم يسمع الإنسان صوت نفسه فسيسمع صوت غيره ، وفى حالة الأمة العربية الإسلامية فانها لم تسمع الصوت من داخلها وبالتالى فستسمع أصوات الغرب وما تمليه عليها .

إن مسألة الانفصال بين العقيدة وواقع العالم الإسلامى فيها افتراض بنظرة ثابتة إلى العقيدة وافتراض بأن واقع العالم الإسلامى متغير فى أى عصر من العصور وظاهر الأمور يوحى بهذا وبأن العقيدة يجب أن تكون هى الطرف الثابت باعتبار أن لها أركانا ودعائم وليست متغيرة حسب الأحوال والظروف والأوضاع الاجتماعية واستقراء الواقع يكشف لنا عن صورة أخرى هى أن العقيدة تفسر فى كل عصر حسب الأوضاع الاجتماعية السائدة فى ذلك العصر والعملية تتم عن طريق شكل من أشكال التفسير ، والتفسيرات متعددة بحكم أن العقيدة فى كثير جدا من جوانبها يمكن أن تقبل هذه الكثرة من التفسيرات فيتم تشكيلها من خلال التركيز على جوانب معينة فيها والإقلال من الاهتمام بجوانب أخرى بمعنى أن الانتقاء يجعل المسلمين فى عصر معين وظروف معينة يهتمون بجوانب العقيدة على حساب جوانب أخرى ومقولة چاك بيرك هذه حسب

وجهة النظر التقليدية صحيحة لكن حسب وجهة النظر الواقعية التى نتجاوز بها تلك الرؤية التقليدية تبين لنا أن الواقع الإسلامى هو الذى يتحكم دائما فى الشكل الذى يفهم به المسلمون عقيدتهم .

وأنا لا أستطيع أن أدعى فهم الإسلام فى ذاته ولكنى أفهمه كما يفهمه المسلمون ويفسرونه فى عصر معين لأن كل تفسير تقوم به حركة من الحركات الإسلامية أو تيار يوصف بأنه هو الإسلام فى ذاته أو هو العقيدة على حين أنه لا يعدو أن يكون رؤية لهذا التيار كما أنه من الممكن أيضا أن تكون هناك تيارات سابقة لعصرها أو بعض وجهات النظر التى تعد تقدمية حتى لو كانت فى عصور قديمة وهذا فى الواقع يؤكد ما أقوله ولا ينفيه لأنه يرجع فى حقيقة الأمر إلى موقف القائم بالتفسير .

وأرى أنه إذا كانت مشكلة العالم الإسلامى فى الانفصال تعد مسألة نسبية تتحدد حسب الرؤية فهى تتمثل فى عدم قدرة هذا العالم على مسايرة العصر إذ أن أهم أسباب تضخم هذه المشكلة واستفحالها أن هناك من لا يهتمون أصلا بهذه القضية ولا يشعرون بها لأنهم يعتقدون أننا لم نحاول أن نساير عصرا سابقا مسايرة كاملة وأننا لو وصلنا إلى هذه المسايرة لحلت كل مشكلاتنا آليا وهذا من أبرز الأسباب التى تجعل قطاعات واسعة من العالم الإسلامى تعتقد أن مسايرة العالم المعاصر هدف لا يستحق العناء فهو عالم يشوبه الانحلال والفجور والمادية وأفضل لنا أن ننأى بأنفسنا عن هذه الأوضاع وعلى ذلك فلن نتجاوز هذه المشكلة الفادحة إلا إذا تخلصنا من التفكير المتزمت الذى تسير عليه حياة هذا العالم الإسلامى بأسرها حيث أصبح المسلمون أنفسهم يؤكدون مقولة " الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا " ذلك بعد أن أكدها المستشرقون بشكل استعلائى لكى يفصلوا بين الشرق والغرب ... لكن يأتى تأكيد المسلمين لها بمعنى أن الشرق سيظل هو مقر القيم السامية والأخلاق والمبادئ والغرب هو مستنقع الانحطاط وبالتالى لا يصح الخلط بينهما ويجب أن نحتفظ بأصالتنا هذه ، بينما الاتصال الحضارى أصبح ضرورة لا مفر منها وتلك حقيقة أدركها المسلمون فى عصور ازدهارهم حينما انفتحوا على الحضارات الأخرى وعرفوا نماذج ناضجة من التفكير ولم تكن هذه

النماذج إسلامية بل كان بعضها وثنيا . فإذا كان المسلمون منذ أكثر من عشرة قرون قد أدركوا هذا فمن باب أولى أن نكون أكثر إدراكا لحقيقة التقدم الذى نشهده بل نأخذه كقضية مسلمة ولا نقف عند قضية أولية جدا كان من الواجب أن نتجاوزها لأن انشغالنا بها يمثل نكسة فكرية غريبة فلو أخذت مجموعة البلاد التى تسمى نفسها أمة إسلامية هل تجد فيها أى نوع من التوحد فى الرأى ولكافة الجوانب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ؟!

لا شك أنك ستجد تباينا هائلا إذ أن المصالح نفسها هى التى تتحكم فى اتجاهات تلك المجتماعات الإسلامية وليس رغباتهم فى توحيد كلمة المسلمين وبالتالى ستجد تيارات رئيسية فى الفكر الإسلامى تعانى من حالة تخلف شديد وإن كانت قد اغترت كثيرا بالانتشار الكمى الذى تمتعت به فى السنوات الأخيرة فاعتقدت أنها تمثل تيار المستقبل لكن يجب أن نميز بين الكم والكيف ونتيقن أن الكثرة العددية كانت وبالا على الفكر الإسلامى وليست دليلا على تميزه فى العصر الحاضر فهناك جمود واضح وعدم رغبة فى ممارسة المرونة وعدم محاولة مسايرة التيارات العصرية من خلال تفسيرات أكثر استنارة لكن ما يقال هو أن التقدم شر كأن التقدم يتعارض مع النص كما يفسرونه هو أو كما يفهونه وعلى ذلك فليس لدينا مانع من أن نضحى بالتقدم كله فى سبيل الفهم الخاطىء .

أما بالنسبة لما يثيره چاك بيرك حول إمكانيات القرآن فنحن نرى أن هذه الإمكانيات لا نهاية لها بسبب بسيط هو أن واقع المجتمع الإنسانى لا نهاية له أى أن الإنسان هو الذى يوجه النص وليس النص هو الذى يوجه الإنسان بمعنى أنك تعطى للنص روحه فمن خلال الصلة بعقل إنسان يتحول إلى نص حى تشع فيه العقلانية ويصبح قابلا لإمكانيات لا نهاية لها من التفتح والتنوير ولهذا يجب أن ندرك حقيقة بسيطة وهى أن النص الدينى لا يمارس تأثيره على الإنسان من تلقاء ذاته ولكن يمارس هذا التأثير من خلال إنسان يفهمه ويفسره وبالتالى فالإمكانيات الهائلة للقرآن هى فى الحقيقة تتجدد حسب الإمكانيات الهائلة للمسلمين وإذا كانت الإمكانات معتمدة على إمكانات المسلمين

فمن الصعب القول بأنها أقل أو أكثر إذ أن النص الديني في كل الحالات قابل للصعود بمجتمعه إلى السموات السبع كما يمكن أن يهبط بهم إذا أساءوا فهمه إلى الواقع المتدنى وعلى هذا الأساس فالعلاقة هى علاقة توازن وترابط قوى . وأنا ضد القول بأن الغرب يحتقر عقائد الشرق بل إن العكس هو الصحيح لأن كمية الدراسات التى قام بها الغرب لعقائد هذا الشرق و بعضها شبه موضوعى لا يمكن أن توازيها دراسات مماثلة من الشرق إلى الغرب والذى يبعث إلينا هذا الوهم هو أن الغرب له منهج معين فى دراسة العقائد فهو يدرسها مرة بطريقة تاريخية وأخرى من منظور اجتماعي أو اقتصادي أو سياسى فلو أخذت المسألة بالمنظور الحرفى لقلت إن الغرب يحتقر عقائده الخاصة لأنه لا يترك تفصيلة إلا ويخضعها لتحويلات علمية فى منتهى الدقة ولأننا بعيدون عن هذه التحليلات الدقيقة نتصور أن هذا احتقار أو هجوم على العقيدة الإسلامية وبالعكس يجب أن نرحب بأى نوع من التفسير العلمى أو التطبيق المنهجى ، المهم فى الأمر ألا نأخذ هذا على أنه يمثل الحقيقة المطلقة أو الكلمة الأخيرة فى الموضوع وإنما يكفى أن تطبيق هذا المنهج يفتح لنا آفاقا جديدة للنص الدينى .

دائما لى تحفظ على ما يسمى بمشكلة الإسلام ، فالإسلام ليست له مشكلة لأنه كلمة الله الموحى بها إلى الإنسان الذى تفرد فى أن يقول (نعم) وأن يقول لا وهنا تنشأ قضية الابتلاء وموقف الناس من الرسالات إن اتبعوا الهدى صحت أمورهم واستقامت وإذا انحرفوا عنها اضطربت أمورهم وتعثرت المشكلة . إن الدين وهو إلهى إذا اتصل بالإنسان وهو بشرى كان المكون النهائى فى الواقع المجتمعى ظاهرة اجتماعية لها مشاكل وعلى ذلك إذا قلنا أن هناك مشكلة فهى مشكلة وأزمة المسلمين وليست مشكلة الإسلام ، والبحث العلمى المنتج يكشف أسباب هذه الأزمة كما يكشف عن خيوط ترشدنا إلى كيفية الخروج منها وفى رأيى أن الواقع الإسلامى يعانى مشكلة مزدوجة هى فى شق منها أزمة داخلية وفى الشق الأخر أزمة خارجية، وتفسيرا لذلك أن المسلمين كافة تعاملوا مع إسلامهم تعاملا مغلوطا فالانتقاء من مكونات التراث الإسلامى كان غير موفق بمعنى أن أوضاعا كثيرة استجدت أو ظهرت فى البلاد الإسلامية فى عصور

التراجع والانحطاط حولها أصحابها من تقاليد فاسدة إلى دين يتعبدون به فأصبح ما يقدم الآن للناس على أنه إسلام ليس هو الإسلام فى صورته وإنما هو ركام بعضه إسلامى وكثير منه تقاليد وأوضاع مواقف أحيطت بهالة وقداسة لا شرعية لها فكانت النتيجة أن المسلمين تخلفوا وصاروا أمة لا تعاون بين أجزائها كما استقبلوا الحضارة الغربية فأخذوا منها بعض أسباب أزماتها وتركوا أسباب نهضتها وتجمعت لديهم فى زماننا هذا مظاهر أزمة الحضارة الإسلامية ومظاهر أزمة الحضارة الغربية وأصبحت هاتان الأزمتان تشكلان الواقع العربى الإسلامى الذى جسد مشاكل التقدم ومشاكل التخلف وضمن هذا تأتى إشكالية العلاقة بالقديم والتى أعتبرها استدعاء لمذاهب ومبادئ وقيم صالحة لنعيش بها فى الحاضر وليست مسألة عودة لأن العودة فيها معنى الانكفاء على الماضى والتقيد بكل صغيرة وكبيرة فيه مع أن القدم وحده ليس سببا للقداسة وشروط النهضة فى الإسلام واضحة جدا : أولها متعلق باستخدام العقل وليس تغييبه لصالح حرفية النص ولتقليد الآخرين، الأمر الثانى هو الحاجة إلى العمل والتجويد فلا نهضة بدون إبداع وإن كان الأمر قد وصل بنا إلى أن الذى يعمل كثيرا يتهم فى ذكائه وأن كثرة العمل نقيصه فقفزة واحدة بخيالك إلى الكثير من الدول تجد أقواما يتعبدون بالعمل كما نتعبد نحن بالبطالة والكسل ولا عجب فى ذلك فهناك شعارات ساقطة تقرع آذاننا وتجعل كل واحد يرضى بما دون الإتقان بينما حياة الإنسان سعيا نحو الكمال ودعاوى الإسلام كلها إلى الكمال الإنسانى والاقتراب منه والرضا بغير ذلك هو حال العاجزين الذين يتشدقون بالماضى أو هى حالة نفسية مرضية مبعثها الخوف من الحاضر واليأس من المستقبل ذلك لسقوط الهمة وترهل الكيان الاجتماعي والانتقال من الحركة إلى السكون من التفكير فى المستقبل إلى النوبان فى الماضى : إنه إسلام الغيبة والغيبوبة الذى لا تقوم به نهضة وكل طرح للإسلام يقوى هذه النظرة المتواكلة ويقوى هذا اليأس والانكفاء على الماضى وتعطيل العقل وإنزاله عن عرشه بما يجعل النصوص مقابلة للعقل إنما هو طرح مغلوط مغشوش وعلاجه ليس عند الواعظ أو الفقيه وإنما عند الطبيب لأن صاحبه مريض بمكظومات ومكنونات وهيهات للإسلام أن يكون مصيره فى

أيدى مجموعة من المرضى فأين نحن من هذه القضية ؟؟ أين القوة الضاربة فى العالم الإسلامى ؟؟ إن المسلمين فى التصور الإسلامى أمة معمرة لما استلهموا من روح الإسلام وقيمه فقدموا علوما وقدموا نهضة وفجروا طاقات وأبدعوا فى الفنون والأدب فكانوا بذلك رحمة للعالمين فأين هم الآن ؟؟؟

كل هذا الكلام يفسر الواقع المعاش فالدنيا تتغير والخطر يتشكل من أن الأمم تشارك فى صنع عصر جديد بينما المسلمون غير مدعوين للمشاركة فى إقامة ثقافة عالمية يتعاون فيها الناس على الخير. والمأساة أننا نكاد ندفع دفعا لنظل بعيدين والمسلم الرشيد عليه أن يدرك أن ما بيننا وبين العالم من نسب وصلة أكثر مما بيننا وبينه من اختلاف وتلك الحقيقة هى التى يكون الإسلام بها موجودا وفى رأيى أنه ينبغى حماية الحضارة الإسلامية من الآثار الوخيمة والأفكار المريضة فيما يسمى بالميراث اليهودى المسيحى وإنما هو فى نظرنا ميراث إسلامى بالمعنى الواسع لكلمة الإسلام لذلك فمن التجنى أن يحال بين المسلمين وبين أن يسهموا فى الحضارة العالمية وتلك هى مشكلة المستقبل القريب إذ أن البشرية تعانى معاناة موضوعية من آثار الثورات الصناعية المتعاقبة التى ملك بها الإنسان المادة وفقد نفسه!!

فإسهام الحضارة الإسلامية فى أن نقول نحن هنا مع الحضارة الغربية فيما أخذت به من تسخير الدنيا للإنسان لكننا نحاول علاج دائها بأن نحافظ على حرارة العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان حتى تتوازن المسيرة بتلبية الاحتياجات المادية والأشواق الروحية وهذه الطمأنينة هى قمة الوجود الإنسانى المكتمل فموقفنا من العالم أننا رسل رحمة وتعارف نحن مع الناس وللناس ولسنا على الناس .

إن القضايا التى يجب أن تكون لها أولوية خاصة فى الواقع الإسلامى وأبدؤها بتحرير عقل المسلم من التقليد ثم العمل والإنتاج فقضية توحد المسلمين وعدم استهلاك طاقاتهم فى حروب أهلية بعضها فكرى وبعضها سياسى وعسكرى والرابع هو تقوية الصلة بالعالم ليتحقق التواجد المطلوب وهذا بلا شك يدعونى لأن أقسم نماذج الفكر الإسلامى القائم إلى نموذج تقليدى رقيب تعبر عنه فى الغالب المؤسسات الدينية

الرسمية فى العالم الإسلامى وهذا لا يستنهض همة ولا يحرك خيالا ولا يلتف حوله جماهير والنموذج الثانى أسميه نموذج الإسلام الغاضب ويمثله الشباب الذى يظن أنه اكتشف الإسلام متأخرا واستبد به الحماس للإصلاح، والحقيقة أننا بين نقيضين أناس يفكرون للإسلام على قمة العقل الباردة وآخرون كلهم غضب والغضب جمرة تحرق العقل بينما نحن فى حاجة إلى فكر بصير وإرادة حديدية وربما يكون التمرد على الواقع مدخلا للتغيير لكن صورة الإسلام الغاضب تجعلك تغضب على المجتمع كله وتعزل نفسك عنه وهنا يبدأ الاتهام لكن الغضب لمحارم الله والغيرة على الإسلام والتطلع لمستقبل أفضل هو منطق الحركة كما يجب والذى من أجله تتحتم إعادة صياغة عقل المسلم وفى إطار هذه الصياغة يجب أن يتلاشى تقسيم العلوم إلى تجريبية ودينيوية لأن هذا التقسيم مبنى على أن الدين منحصر فى زاوية صغيرة والإسلام ليس فيه هذا التصور وإنما فيه خالق ومخلوقات مطالبة بأن تستقيم على أمر الخالق فى شئونها كلها، ومن ذلك فالتقسيم إلى دينى ودنيوى لا وجود له إنما كله سلوك إنسانى سواء كنا نتحدث عن عبادات أو معاملات وأخلاق أو علاقات والإسلام فى ذاته واضح ولكنه عند الناس مختلط فى وقت يتواصل فيه العالم وثورة الاتصالات والمعلومات جعلت الحضارات يصب بعضها فى بعض فغير صحيح أن الحكمة إذا جاءت من الغرب رفضناها وأن الحماقة إذا جاءت من الشرق قبلناها حتى لا تتعاظم الكارثة فالإسلام فرصة البشرية للمستقبل لتنجو من دمار الآثار الجانبية للثورة الصناعية لذلك فأنا أدعوا العقلاء على كل الساحات أن يمدوا أيديهم إلى دعاة النهضة داخل المدارس الفكرية الإسلامية حتى نخطو على طريق الكمال ولا نصبح ظاهرة صوتية ...

إننا لا نخشى على القرآن الكريم من الترجمة أو المناقشة أو المواجهة من أي لون ومصدر لأنه أقوى من كل ما أثير ويثار عليه لأنه من عند الله وكم بين الله وبين عبيده ممن خلق تحت أى اسم من الأسماء لا نخشى عليه لأننا نؤمن به إيمانا راسخا لا يهتز مهما قيل سواء كان بغرض خبئ أو حتى بحسن نية أو قصور فهم لعامل اللغة والبعد الوجدانى ومن هنا يجب أن نرد فى موضوعية الواثق من قضيته العالم بأسرار كتابه

أكثر وأعمق وأسلم وأقدر فى هدوء شديد أقول هل درس چاك بيرك اللغة العربية دراسة معمقة حتى يفهم القرآن فهما صحيحا ناقدا إذ لم يفعل فالترجمة أساسا لا يعتد بها لأنها على غير أساس لغوى وهذا سبب جذرى لأن القرآن كتاب العربية الأكبر و الذروة من تعبيرها، القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذى كتب وقت نزوله أما التوراة فلم تكتب إلا بعد وفاة موسى بزمن بعيد وعلى مدى ألفى سنة حسب تقدير باحثين شرقيين وغربيين، مثل العالم (ديفو) الذى كتب سفر التكوين ومثل العالم (بوكاى) الذى أثبت أن التوراة صححت وحورت وعدلت فى عصور مختلفة وفقا لأغراض أصحابها فماذا لا توجه إليها الاتهامات والمزاعم مع ما فيها من متناقضات وغرائب بسبب التدخل والتداخل البشرى ؟ لماذا الإسلام ؟ ماذا نقموا منه ؟ ليس چاك بيرك بأولهم وقد تزيد على الإسلام (كيمون) فى كتابه (باثولوچية الإسلام) كما (مسيو هانوتو) وزير خارجية فرنسا فى جريدة (الچرنال) مبصرا قومه بخطر الإسلام داعيا إلى مواجهة هذا الخطر ومتى ؟ فى العصر الذى استفحل فيه استعمار الغرب للشرق العربى والإسلامى والسبب فى يقينى هو قوة الإسلام الذاتية التى ينطوى عليها والتى انفسح لها الطريق وخلا من العوائق فانطلق إلى غايات بعيدة المدى ترهب أعداءه حتى لو كانت خالصة للحضارة فهم لا يريدون منازعا فى سلطان سياسى أو حضارى وبالأحرى لا يريدون للبلاد الإسلامية انفلاتا من قبضتهم فتضيع عليهم مغانم كثيرة تقلب موازينهم فى بلادهم الأصلية .

إن العالم الإسلامى حتى فى ضعفه يخيف الأقوياء لأنهم يحفظون جيدا أن الإسلام فى بداية أمره حين أزاح إمبراطورية الفرس وأطاح بإمبراطورية الروم لم يكن أتباعه أو جنوده فى ذلك الوقت هم الأعلم أو الأغنى أو الأكثر عددا وعدة بل العكس هو الصحيح وإنصافا للحق أقول إن هناك علماء تجريبيين أنصفوا الإسلام وأنه موضوع كبير أكتفى فيه بشاهد واحد على سبيل المثال وهو الدكتور (أرنست هجيل) الفيلسوف الألمانى الذى انتقد جميع الأديان فى كتابه (لغز العالم) ثم ما لبث أن أشاد بالإسلام وبنقاء عقيدة التوحيد فيه كما لم يفعل دين آخر وعلامة استفهام أخرى أوجهها إلينا وهى لماذا

لم يترجم دارسون منا لهم ضلاعة فى اللغتين العربية والأجنبية : فرنسية أو إنجليزية أو ألمانية ؟؟ القرآن الكريم من واقع خلفية دينية صحيحة وبهذا نوفر على أنفسنا وعلى الأجنبى مشاكل لا حصر لها !! .

الفهرس